السيد البدوى
ودولة الدراويش فى مصر

محمد فهمى عبد اللطيف

منشورات
سمير أبو داوود
المركز العربى للصحافة - القاهرة
٢٢ شارع قصر النيل ت ٧٥٤٣٠٩ / ٧٤١٩١٥ / ٧٤٤٥١٣

الهيئة العامة لقصور الثقافة
GENERAL ORGANIZATION for CULTURE CENTERS

٣٠
مكتبة
الدراسات الشعبية

297.489
B132L
1998

السيد البدوى

ودولة الدراويش فى مصر

محمد فهمى عبد اللطيف

DL

سبتمبر ١٩٩٨

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الاسكندرية
عربى
(إهداء)
رقم التسجيل
١٢-٥٧٨

اهداءات ٢٠٠٣
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة

* تصميم الغلاف :

للفنان محمد بغدادى

* موتيفة الوسط

وجـــه

الطبعة الأولى

منشورات المركز العربى للصحافة - القاهرة

١٩٧٩

الطبعة الثانية

رئيس مجلس الإدارة

د. مصطفى الرزاز

المشرف العام على النشر

على أبو شـــادى

رئيس التحرير

خـــيرى شـــلبى

أمين عام النشر

محمـد كشـيك

مدير التحرير

محمـود خير الله

مستشارو التحرير

د.أحمد أبو زيد

د. نبيلة ابراهيم

د. أحمد مرسى

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى

١٦ شارع أمين ســامى قصـر العينى - القـاهرة رقم بريدى ١١٥٦١

فهرس الكتـــاب

صفحة

هذا الكتاب فى طبعته الثانية ... ... ٣ — ٤

هذا الكتاب ... ... ٥ — ١٧

الفصل الأول

العلويون واستغلالهم للتصوف فى طلب الحكم ١٨ — ٣١

الفصل الثانى

حياة السيد وسيرته ... ٣٢ — ٥١

٢٨ حياة غامضة — ٣٤ أسرة السيد ونسبه — ٣٧ نشأة السيد — ٣٩ رحلة السيد إلى العراق — ٤٢ ساكن طنـطا — ٤٥ فى دار ابن شحيط — ٤٦ بين السيد وابن دقيق العيد — ٤٩ صلة السيد بمكة — ٥٠ وفاة السيد ... ...

الفصل الثالث

تعليقات وتفسيرات ... ٥٢ — ٧٦

٥٣ أثر الرؤيا فى مقاصد السيد — ٥٦ صاحب اللثامين — ٥٨ البشت الصوف والعلم الأحمر — ٦١ قدم وحجر — ٦٥ لماذا لم يتزوج السيد ؟ —

صفحة

٦٧ السيد وفاطمة بنت برى — ٧٠ قصة خضرة الشريفة — ٧١ المعجزة الكبرى للسيد — ٧٤ كلمة أخيرة عن مقاصد السيد ... ...

الفصل الرابع

شخصية السيد ... ٧٧ — ٨٧

٧٧ الشخصية والنجاح — ٧٨ شخصية السيد — ٨٠ شخصية السيد العلمية — ٨٢ شخصية السيد الصوفية — ٨٤ شخصية مصنوعة ... ...

الفصل الخامس

أتباع السيد ومريدوه ... ٨٨ — ١٠٨

٩٠ السطوحية — ٩١ الشيخ عبد العـــال — ٩٤ الخلافة فى أسرة عبد العال — ٩٦ الشناوى والشناوية — ٩٧ خلفاء السيد ونظـام الخلافة — ٩٨ سدانة الضريح — ١٠١ القوم الفقـراء — ١٠٢ من هم السطوحية؟ — ١٠٦ تشعب الطريقة الأحمدية — ١٠٦ دفع شبهة ... ...

صفحة

الفصل السادس

موالد السيد ومواكبه ... ١٠٩ - ١٣٩
١١١ كيف أقيم المولد الكبير؟ - ١١٤ المولد الصغير
١١٥ المولد الرجبي - ١١٥ تواريخ إقامة هذه الموالد
١١٧ إنكار الفقهاء لما يقع فى المولد - ١١٨ دفاع
الصوفية - ١٢٦ رأى على مبارك باشا -
١٣٠ المواكب الأحمدية - ١٣١ اليوم الأول للموالد
١٣٣ استقبال الشناوية ١٣٤ الليلة الختامية -
١٣٥ ركبة الخليفة - ١٣٦ ما يجرى فى المولد
الصغير - ١٣٦ أثر العادات الفرعونية -
١٣٨ الأثر الفاطمى ... ...

الفصل السابع

نتائج وآثار ... ١٤٠ - ١٦٨
١٤٠ تأثير المتصوفة فى حياة المجتمع المصرى -
١٤٥ الناحية الدينية - ١٥٢ المناهضة للإصلاح -
١٥٣ الناحية الاجتماعية - ١٥٦ بيئة صالحة للإستعمار
١٦١ تجار الخرافات وبائعو التمائم - ١٦٣ أثر فى
الموسيقى والغناء ... ...

صفحة

الفصل الثامن

إصلاح واجب ... ١٦٩ - ١٨٤
١٦٩ حاضر المتصوفة - ١٧١ تنديد الشعراء
بتهريج المتصوفة - ١٧٢ فتوى شرعية -
١٧٥ طقوس ليست من الدين ولا من التصوف -
١٧٧ محاولات للإصلاح - ١٨٠ مسألة تحتاج إلى
شجاعة - ١٨١ طريق الإصلاح - ١٨٣ خاتمة
مصادر الكتاب ... ... ١٨٥ - ١٨٧

هذا الكتاب

الكشف عن أسرار دولة الدراويش

دولة الدراويش فى مصر كانت راسخة، فضلا عن اتساعها وتشعبها حيث شملت أرض مصر من أقصاها إلى أقصاها.

والدراويش مجموعة طوائف تنتمى كلها الي الطرق الصوفية التي سيطرت على غالبية أبناء الشعب المصرى منذ العصور الوسطى الإسلامية إلى وقتنا الراهن. لكنها انتعشت وازدهرت فى ظل الحكومات الأجنبية التي احتلت البلاد المصرية، ووجد الناس فى هذه الطرق خلاصا من عصور الظلام واستبداد الحكام وجورهم. وكان لكل قطب من أقطاب الصوفية دراويشه وأتباعه ومريدوه الذين اخذوا العهد علي يديه والتزموا دورا مشهودا في نشر الثقافة الدينية وفي تطوير الموسيقي وتحريرها من التأثيرات التركية والغربية وتحويلها الي أداة لتطهير الوجدان من الخبائث، والوصول الي مرحلة الوجد والصفاء الإنساني.

وكان الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف من أوائل الكتاب الذين انتبهوا للوجدان الشعبى وما يصدر عنه من فنون ذات قيمة رفيعة فى الواقع إلا أن هذه الفنون كانت قد انطمست وعاش مابقى منها منزويا فى الظل بحكم ارتباطها بالطبقة الدنيا من طبقات الشعب التي لم تصب قدرا من التعليم الحديث يفصل بينها وبين تراثها الوجداني مثلما حدث مع الطبقات التي نشأ أبناؤها فى ظل التعليم الغربى الحديث فباتوا يستعلون على جميع الفنون الشعبية مع أنها المصدر الأساسى لفهم طبيعة الشخصية القومية وعبقريتها.

نشرنا للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فى هذه السلسلة كتابين هما: الفن الإلهى، ويعنى به موسيقى الطرق الصوفية، وكتاب أبو زيد الهلالى الذى كان أول انتباهة مبكرة لدراسة هذه الشخصية التاريخية التي عشقها الخيال المصرى وأضفى عليها الكثير من نفسه وجعلها رمزاً للبطولة القومية.

واليوم يطيب لنا أن نعيد نشر كتاب ثالث له هو (السيد البدوى ودولة الدراويش). وهو كما يبدو من عنوانه يطرق أرضا شديدة البكارة لم تطأها أقدام المؤرخين من قبل كثيرا. شأن الأستاذ عبد اللطيف فى جميع دراساته.

وفى هذا الكتاب يكشف الباحث كثيرا من الأسرار الجوهرية المهمة عن العلويين واستغلالهم للتصوف فى طلب الحكم، وعن سيرة حياة السيد أحمد البدوى الغامضة وقصة رحيله الي العراق ثم عودته للاستقرار فى مدينة طنطا، وعن نظامه وعهده الصوفى، وعدم زواجه، وقصته من السيدة فاطمة بنت برى، وقصة خضرة الشريفة، والمعجزة الكبرى فى حياة السيد البدوى، ومقاصده، كما يقدم تحليلا للشخصية فى جانبيها العلمى والإنسانى. ثم يبحث فى علاقاته باتباعه ومريديه ونظام الخلافة بعد رحيله.

والكتاب – كما يشير الباحث – لم يقصد به الي الترجمة للسيد البدوى والتعريف به وكشف حقيقته وشخصيته للناس فحسب، وانما أراد أن يكشف فيه عن الحقيقة فى رغبات الشعب وآماله التي تركزت حول هذا القطب خاصة وحول أقطاب دولة الدراويش فى مصر عامة ومدى ما كان لذلك من تأثير فى حياة المجتمع المصرى من النواحى الدينية والاجتماعية والثقافية.

نرجو أن نكون قد أضفنا بهذا الكتاب طاقة ضوء فى ثقافتنا الشعبية، وأن نكون قد قدمنا دليلا جديدا علي أن البحث فى الثقافة الشعبية هو الطريق الأصلح لاكتشاف الوجهة الصحيحة لما نود أن نبدعه من فنون وآداب.

خيرى شلبى

هذا الكتاب

فى طبعته الثانية

صدر هذا الكتاب فى طبعته الأولى منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، أو على التحديد فى عام ١٩٤٨ ، فأثار ضجة كبيرة كان من الطبيعى أن تحدث ، وكنت أتوقعها قبل أن تحدث ، لأن موضوع هذا الكتاب يعالج قضية تتصل بالمشاعر العميقة للشعب ، وتتناول تلك الأوهام والخرافات التى زرعها الجهل فى وجدان هذا الشعب حتى تحولت إلى عقيدة راسخة يدين بها فى حياته الدينية والاجتماعية ، وليس هذا بالعمل السهل ، ولا بالأمر الذى يمكن أن يمضى دون أن يثير الضجيج والصخب ، وتبادل الاتهامات .

فعندما صدر هذا الكتاب وقف خطيب الجامع الأحمدى يطعن عليه، ويحكم على مؤلفه بالمروق والإلحاد، وأنه مغضوب عليه من دولة الشيوخ والأولياء ، وفى نفس الوقت وقف المرحوم الشيخ حامد الفقى رئيس جماعة السنة المحمدية يخطب الجمعة عنه زهاء شهرين ويثنى على الكتاب ومؤلفه ، ويقول إنه خير كتاب يصحح عقائد الناس ، ويطهر معتقداتهم من الأوهام والخرافات .

وعلى أثر صدور هذا الكتاب صدرت سبعة كتب عن السيد البدوى. منها كتابان فى تأييد الدعوة التى تضمنها الكتاب ، وخمسة فى مناقضته وشتم مؤلفه ، والذى لا شك فيه أن هذا الكتاب قد خلق

تياراً فكرياً أثار اهتمام الباحثين بهذا الموضوع ، ومازال مثار اهتمامهم الكبير بالبحث والدراسة ، واستجابة لهذا الاهتمام رأيت أن أخرج كتاب « السيد البدوى أو دولة الدراويش » فى طبعة ثانية بعد أن نفدت طبعته الأولى منذ زمن بعيد ، وكثر طلبه ، وألح على الكثيرون فى إعادة طبعه ، وأحب أن أقول إننى لم أغير فى هذه الطبعة رأياً أعلنته ، ولم أتراجع عن قول أبديته ، وقصدت أن يبقى الكتاب وثيقة كما صدرت ، وإن كنت قد أضفت إلى هذه الطبعة الثانية بعض الشذرات والزيادات تأييداً للرأى ، وتوضيحاً للقول ، واستكمالا للحق .

والله ولى التوفيق من قبل وبعد ...

محمد فهمى عبد اللطيف

هذا الكتاب

روى الشيخ الجبرتى فى الجزء الأول من تاريخه واقعة طريفة من وقائع المجتمع المصرى نؤثر هنا أن ننقلها بلفظها وبأسلوبها ؛ لأنها بهذا لا تصور واقعة فحسب ، بل إنها كذلك تمثل روح المجتمع المصرى ، والنزعات التى كانت تسيطر على عقليته وتفكيره فى تلك الحقبة من التاريخ .

قال الشيخ المؤرخ : « .. وفى يوم الأربعاء رابع عشرين الحجة من سنة سبع وأربعين ومائة وألف للهجرة أشيع فى الناس بمصر أن القيامة قائمة يوم الجمعة فى السادس والعشرين ، وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة ، حتى فى القرى والأرياف . وودع الناس بعضهم بعضاً ، فكان الإنسان يقول لرفيقه : بقى من عمرنا يومان .. وخرج الكثير من الخلق ومن المخاليع إلى الغيطان والمتنزهات وهم يقولون : دعونا نعمل حظاً ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة ، وخرج أهل الجيزة نساءا ورجالاً وصاروا يغتسلون فى النيل ، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم ، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى ، واعتقدوا ذلك ووقع صدقه فى نفوسهم ، ومن قال لهم خلاف ذلك ، أو قال هذا كذب ، لا يلتفتون إلى قوله ، ويقولون بل هذا صحيح . وقال به فلان

اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان فى الجفور والزايرجات(١) ولا يكذبان فى شىء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهم عن خروج الريح التى خرجت فى يوم كذا ، وفلان ذهب إلى الأمير فلان وأخبره بذلك وقال له إحبسنى إلى يوم الجمعة وإن لم تقم القيامة فاقتلنى ، ونحو ذلك من وساوسهم، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين ، ثم لم يقع شىء ، ومضى يوم الجمعة وجاء يوم السبت،وأصبح الناس وهم يقولون : إن فلاناً العالم قال : إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك .: وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم ،فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا بعد وشارعون نعمل حظا ... »(٢) .

وإنها — كما ترى — لواقعة طريفة مضحكة ، وقد وصفها الشيخ الجبرتى نفسه بأنها « حادثة غريبة »،ولكننا فى هذا المجال — مجال البحث والتحقيق — لا نراها بالشىء الغريب ، بل إنها صورة صادقة تمثل العقلية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى لذلك العهد

(١) الجفور جمع جفر وهو جلد كتب عليه الأمام على أو جعفر الصادق الأحداث قبل وقوعها . ويعتبره الشيعة سراً من الأسرار المصونة ، وقد اخترعوا من هذا عنهم الجفر وهو يبحث فى الحروف من حيث دلالتها ، والزابرجات جمع زابرجة وهى جدول سحرى تنجيمى شائع فى المغرب ، وتستخدم حروفها بداية لقراءة الطالع . ابتدعها الصوفى أبو العباس البنى ، وكتب عنها ابن خلدون كلاماً طويلا فى المقدمة .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ١٥٢ الطبعة الأهلية .

أقوى تمثيل وأوضحه ، على أنها عقلية لا تزال ماثلة بين جمهرة الشعب إلى هذه الأيام ، ولا نزال نراها قائمة بين مختلف الطبقات التى تقتات بالأوهام ، وتستجيب للخرافات والترهات ، وتمشى تحت تأثيرها ضارعة مذعنة كأنها تتلمس أى سبب للعزاء والاستسلام

وأنت إذا ما رجعت معى إلى تلك الحكاية التى رواها الجبرتى فستقع فيها على كثير من المفارقات والتلفيقات التى لا يمكن أن تلتئم فى إدراك صحيح بأية حال من الأحوال . ألست ترى إلى جماهير الشعب وهى تستجيب لشائعة من الشائعات فتعتقد اعتقاداً راسخاً أن القيامة قائمة بعد يومين لا محالة ، وليس لديها من دليل على هذا إلا أن يهودياً وقبطياً أخبرا بذلك بناء على ما وقفا عليه فى الجفور والزايرجات ؟ .. على أن هذه الجماهير لا تأخذ الطريق لاستقبال القيامة كما يجب أن يكون حيث ينصب الميزان ويجرى الحساب والعقاب ، ويتقدم كل إنسان إلى الله بعمله . بل إن كل طائفة منهم تمضى فى طريقها وتصرّ على حالها ، فأصحاب الحظ والخلابيع يمادون فى حظهم وخلاعتهم ، وأهل التقوى والدين يزيدون من صلاتهم وتضرعهم ، وأهل البساطة والسذاجة يحسبون أن الاغتسال فى النيل مما يطهرهم من ذنوبهم ، ثم يمضى اليومان ، ويأتى الموعد المنتظر، فلا تقوم القيامة ولا ينفخ فى الصور ، وتصبح تلك الجماهير وهى تعتقد أن السيد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا إلى الله فى ذلك فقبل شفاعتهم ، وتمضى آمنة أن يعصف بوجودها هول القيامة

ونهاية العمر ، فيؤثر كل الحياة التى يحياها ، ويجرى على طبيعته فى الاحتفال بالدنيا .

حقاً إنها مفارقات مضحكة ، وتلفيقات متنافرة ، لا يمكن أن تلتئم أطرافها فى عقل سليم ومنطق قويم ، ولكنها التأمت فى تلك العقلية الملفقة ، واستقامت فى ذلك الإدراك الساذج الذى استجاب فى سهولة لشائعة ظاهرة التلفيق والبهتان ، وأمكنه أن يجمع الاعتقاد فى اليهودى والقبطى والمسلم دفعة واحدة ، وأن يتقبل ما ينقل عنهم وما يختلق عليهم بالتسليم والإذعان ...

هذه العقلية التى سادت الشعب المصرى فى ظلام العصور الخالية إنما كانت نتيجة لما حاق بذلك الشعب من الأحداث الرهيبة المفزعة ، والفترات العصيبة القاسية إبان الحروب الصليبية وأهوالها الفظيعة التى أفقدت الشعب صوابه ، وقضت عليه أن يتلمس أسباب الركون والاستسلام مهما تكن تلك الأسباب واهية تافهة ، وأن يتلقف الأوهام والخرافات باسم الدين ، فيجعلها قوام حياته ونسيج تفكيره ومدار اعتقاده ، وهذه نتيجة تكون من نتائج الحروب الدينية وأثرها فى الجماعات ، ومن ثم تقترن هذه الحروب بشيوع الأساطير وأحاديث الخوارق الدينية التى تعتنقها الجماهير ، وتدين بها عقائد ثابتة راسخة لا تقبل الشك ولا تحتمل التكذيب .

على أن الحروب الصليبية لم تكن كل شىء فى هذا ، بل إنها كانت المرحلة الأخيرة فى تكوين تلك العقلية عند جماهير الشعب

المصرى ، فقد كانت هناك عناصر من الديانات الفرعونيه وغير الفرعونية تتصل بنفوس الشعب ، من الخضوع للكهنة والإذعان لسيطرتهم ، والفناء فيما يؤدون من طقوس ومراسيم ، ثم كان صنيع الفاطميين فى إثارة تلك المشاعر العريقة عند المصريين بما أذاعوا من دعايات وتعاليم وسموها بسمة الدين ، وبما أبدوا من مهارة فى ربط عقلية الشعب بسكان الأضرحة والقبور ، وتلمس الخير والبركة عند عتبات الشيوخ ، وكان أن توالى على مصر كثير من المحن القاسية بوقوع المجاعات الساحقة ، وفتك الأوبئة المروعة ، فكان هذا كله مما هيأ عقلية الشعب للانحلال ، وجعلها أطوع ما تكون لتقبل كل ما يقدم إليها مما تتبين فيه روح الأمن والعزاء ، وراحة الركون والاستسلام . ثم جاءت الحروب الصليبية بأهوالها وشنائعها فكان من أثرها فى عقلية الشعب المصرى ونفسيته ، بل فى عقلية العالم الإسلامى عامة ما ألمحنا إليه من قبل .

وفى هذا الوسط قامت دولة المتصوفين ، أو على الأصح دولة الدراويش ، فوجدوا أصلح تربة لبث تعاليمهم ، وأخصب منبت لنشر تلفيقاتهم ، وسرعان ما تمت لهم السيطرة التامة على مشاعر الشعب ، وأصبحت لهم الكلمة المطلقة فى تكييف ميول العامة وفهمهم للدين ، حتى استغرقت وجدانات الجماهير حال أشبه ما تكون بالغيبوبة والبلاهة كحال أولئك الدراويش فى مواجدهم وانفعالاتهم ، ولقد بلغ من سلطان هؤلاء الدراويش وحرمتهم عند

الشعب أن كانوا يأتون ما يأتون من المناكر والمخزيات فلا يستطيع أحد أن ينكر هذا عليهم أو يناقشهم فيه ، بل لقد كان الناس يحسبون ذلك مظهراً من مظاهر الكرامة لهم ، والفضل الذى آثرهم الله به على غيرهم (١) .

ولم يكن هذا بالأمر الغريب ، لأن الشعوب فى طور الانحطاط لا تقدر أن ترتفع ببصرها وبتفكيرها فى فهم الدين إلى أعلى ، فتضطر أن تتناوله من قرب ، وأن تتمثل مظاهره على وجه الأرض ، وأن تقبل فيه الوساطة عند الله ، وعلى هذا الاعتبار تمثل جماهير الشعب السلطة الإلهية فى أولئك الدراويش والشيوخ ، ووزعوها عليهم حسب اعتقادهم وتقديرهم ، فعندهم الشيخ الذى يقضى الحوائج والمطالب ، والشيخ الذى يشفى من الأمراض ويزيل العلل والشيخ الذى يرد الغائب والضائع ، والشيخ الذى يبارك فى الزرع والضرع .. حتى الشيخ الذى يجمع شمل الحبيب بالحبيب!

ولم تكن هذه حال الطبقات الشعبية فحسب ، بل كانت كذلك حال الحكام والقائمين بأمر الشعب ، إذ كانوا يغدقون على أولئك الدراويش والشيوخ الخيرات الجزيلة والبركات العميمة ، فأقاموا لهم الخوانق والتكايا ، وأنشأوا لهم الربط والزوايا ، وشيدوا لهم الأضرحة والقباب ، وحبسوا عليهم الحبوس والأوقاف ، وكان الحاكم فى جاهه وأبهته يتدلى من فوق عرشه ليجلس إلى جوار

(١) راجع ماكتبه الشعرانى فى طبقاته ج ٢ عن الشيخ عبد القادر السبكى.

الشيخ أو الدرويش التماساً للبركة والقربى ، أو مجاراة للعامة وممالأة للشعور السائد ، وعلى أى فقد كان الحكام فى هذا قدوة لغيرهم ، والفقهاء الذين وقفوا أول الأمر يصدّون ذلك التيار الجارف ، ويتصدون لسلوك أولئك الدراويش الذى ينافى ظاهر الشرع ويجافى روحه ، سرعان ما انخرطوا فى ذلك الطريق ، وألقوا بأنفسهم فى صفوف أولئك الدراويش ، وسرعان ما اصطبغت الثقافة الدينية بتلك الصبغة الخرافية التى يزجيها الدراويش للناس ، وأصبح علماء الأزهر يوزعون أنفسهم بين حلقات الدرس فى النهار ومجالس الذكر فى الليل ، وصار كل شيخ يصطنع من حوله المريدين والأتباع كما يصنع الدراويش وشيوخ الخوانق ، وكان هؤلاء العلماء يحرصون على أن يجمعوا لأنفسهم ألقاب شيوخ الطرق حتى صاروا بذلك فى اعتبار الشعب مظهر بركة ونفع أكثر مما هم مظهر علم وفقه .

هذه الحال قضت على الشعب بأن يلقى بكيانه ووجدانه بين يدى الشيوخ والدراويش القابعين فى الخوانق والزوايا ، أو الراقدين فى الأضرحة ذات القباب العالية ، فكانت الجماهير تمشى إليهم مذعنة مستسلمة فى ذلة وانكسار ، يمنحونهم النذور والعطايا ، ويسترضونهم فى ضراعة بالأدعية والأوراد ، حتى يفيضوا عليهم من رضاهم وبركتهم ، ولقد تصرمت القرون ولا تزال هذه الحال

قائمة ماثلة بين عامة الشعب ، بل وغير العامة من أهل الوجاهة والمثالة ، سواء فى العواصم والمدن ، أو فى القرى ومناحى الريف .

ففى أنحاء الديار المصرية مئات بل آلاف من الأضرحة المشيدة والقباب العالية تمشى إليها جماهير الشعب فى أوقات معلومة وغير معلومة : متلهفة ضارعة متوسلة . حيث موطن الأمل وموضع الرجاء ، فالزارع يرجو البركة فى الزرع والضرع ، والصانع يطلب تسهيل العمل وتيسير الرزق ، والتاجر يبتهل فى الرواج وغلاء السعر ، والمظلوم يدعو إلى الإنتقام من ظالمه وغريمه ، والمريض يتوسل فى الشفاء ووفرة العافية ، والعانس تضرع فى حل عقدتها ، والضرة تطلب قصف عمر ضرتها ، والعقيم تلح فى جبر كسرها بالولد ، وصاحبة الولد تتوسل فى بقائه وطول عمره ... وهكذا يفضى كل ذى حاجة بحاجته . ويتقدم كل صاحب طلبة بطلبته(١) .

الله لتلك النفوس المكروبة ، والقلوب المحروبة ، والأرواح

(١) حدث هذا أيضا فى المسيحية . قال السيو بوته مرى فى كتابه « الإسلام والنصرانية فى افريقية » وفى القرن الثالث من الهجرة ظهرت فى الإسلام العقيدة بالأولياء وابتدعت زيارة قبورهم وصاروا يعتبرون لهم خصائص ويعزون إليهم الكرامات والخوارق . واشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فلولى الفلانى يشفى من الرياح كما كان القديس فياكر يشفى مرض الباسور ، والشيخ الفلانى يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة كما كانوا فى النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو ، والأمام الشافعى يستغيث به طلاب الأزهر النجاح فى دروسهم مثل القديس أيف ... ألخ

الشاردة فى غياهب الآمال والرغبات ، والأشباح الذاهلة حتى عن نفسها ، فكم نديت عينى بالدمع وأنا أنظر تلك الجماهير تتوسل فى لهفة تشق المرائر ، حتى لتعفر وجوهها بالتراب ، وتمرغ جلودها بالأرض ، وتتعلق بالأستار راكعة خاشعة ، وكنت أسائل نفسى : أيكون ذلك أثراً من آثار الحرمان الذى منى به الشعب على مدى العهود المتطاولة ، أم هو نتيجة للجهل الذى ران على العقول والقلوب طوال تلك العصور الخالية ؟! ولكنى سرعان ما كنت أترك هذا التساؤل ، بل أنساه نسياناً ، وأفقد القدرة على التفكير فيه ، وأجدنى فى غمار تلك الجموع أردد مثل ما تردد من الضراعات والتوسلات .. وهل أنا إلا ثمرة من ثمرات ذلك المجتمع ، وعود نبت فى ذلك المنبت ، وتغذى بما فيه حتى شب وترعرع ؟ أجل ؟ ..

ومهما بلغ الإنسان من قوة التفكير ، وجبروت العقل ، فإنه يذهل عن نفسه وعن عقله فى بعض الأحيان إستجابة للنزعات التى سيطرت على طفولته ، وأشربتها عواطفه فى نشأته ، ودرج على تقديسها فى حياته الأولى . حتى « برنارد شو » ذلك المارد الجبار الذى هزىء بكل شىء وسخر من كل شىء .. لم يستطع أن يتخلص من ذلك الضعف ، فتراه يفصح عن هذه الحقيقة وهو يكتب عن القديسة « جان دارك » فيقول : « إن العقيدة تتحصل للإنسان فيما يتحصل له من أنماط عيشه وعادات بيته . فأما أنماط عيشى ففكتورية ، وأما عادات بيتى فبروستانتية ، فمن أجل عاداتى وأنماطى هذه أجدنى

عاجزاً عن التملص من نفسى لأحكم حكماً مبرءاً مجرداً بأن أطياف جان كانت أطيافاً حقة ... » .

ولعلك تعرف أن هناك خلافاً طويلاً عنيفاً بين رجال الدين فى جواز التوسل بالشيوخ وزيارة الأضرحة والقباب العالية ، حتى إنهم ليتراشقون فى ذلك بتهم الشرك والإلحاد والزندقة والوثنية ، ويترامون بالمروق والفسوق ، ولكنى لا أعرض لهذا الخلاف أبداً ، وليس مما يعنينى هنا ، بل إنى أنظر إلى المسألة فيما لها من المظهر العقلى والتأثير الاجتماعى فى البيئة الشعبية ، ولابد أن أقبل الوقائع والمشاهدات على علاتها ، شأن الباحث الاجتماعى والنفسانى الذى ينظر إلى الحقائق كما هى لا كما يجب أن تكون . والذى أود أن أقوله لك هو أن ذلك الاستغراق الوجدانى الذى أخذ بعواطف الشعب فى تقديس سكان الأضرحة والقباب العالية ، والتعلق بأرباب المشيخة والدروشة ، كان له أكبر الأثر فى تفكير الشعب واتجاهاته الاجتماعية ، وتكييف عواطفه وميوله واندفاعاته النفسية ، حتى لتعتبر هذه الناحية عنصراً من العناصر الأصيلة التى تقوم عليها حياة هذا الشعب ، وتتكون منها شخصيته ، وليس من شك فى أنها ستظل هكذا إلى أمد لا يعرف مداه إلا الله .

ولقد كان لهذه الناحية أثر بعيد المدى فى الحياة الثقافية ، وبخاصة فى الثقافة الدينية كما قلت لك من قبل ، ففى حواشى الفقه التى تدرس بالأزهر يقررون أن السيد البدوى قد غسل نفسه بعد مماته ،

ويقولون أنها كرامة من كراماته ، ويفرعون على هذا مناقشة طويلة فيما إذا كان غسل الميت لنفسه مما يسقط هذا الفرض عن المسلمين أم لا ، وهذا شاهد أذكره على سبيل التمثيل ، وإلا فهناك عشرات من الأمثلة المشابهة التى يضيق المقام عن إيرادها واستقصائها ، فإذا ما أضفت إلى هذا ما كان وما يزال كائناً من ذلك الخلاف العنيف بين رجال الدين حول التوسل بالمشايخ وزيارتهم ، وما ألف فى ذلك من كتب وتبودل من حجج ، تبينت أن تأثير هذه الناحية فى الثقافة الدينية لم يكن بالأثر الهين ولا بالأمر القليل .

وهناك لون طريف من ألوان الثقافة كان أثراً من آثار تلك الناحية وهو كتب المناقب ، وذلك الفن الذى يؤثره أتباع الصوفية فى كتابة السير وتراجم الشيوخ ، وهو فن لم يعن مؤرخو الأدب والحياة العقلية بدراسته والبحث فى مصادره كما عنوا بالألوان الثقافية الأخرى ، ولقد كان من أثر هذا اللون الثقافى أن شاع فى البيئات الشعبية كثير من القصص والحكايات الدينية التى تشبه الإسرائيليات . مثل « قصة النبى لما كلمته الغزالة » و« قصة معاذ بن جبل » ، و« قصة السيد البدوى وخضرة الشريفة » ، و« قصة السيد البدوى وفاطمة بنت برى » .. إلى غير ذلك من القصص التى لا تزال شائعة محترمة فى البيئات الشعبية ، ولا تزال تردد فى حلقات الموالد ، ويتخذها الشحاذون وسيلة لانتزاع عطف العامة عليهم فى الحصول على القوت .

وثمة أثر ثالث من آثار تلك الناحية ، ولكنه أثر رائع حقا ونعنى به تلك الأوراد الصوفية التى تفيض بالتضرعات الحارة ، والابتهالات الصادقة ، وتلك القصائد والأناشيد الممتعة التى تتدفق بالاستغاثة والتشفع ، والهفة على الوصل ورؤية الحبيب ، والفوز بنيل المرام وغير ذلك من معانى الحب الذى يعنيه الصوفية ويقصدون به قصدهم ، ثم ما وراء ذلك من الأدوار والمواليا والتواشيح التى يتغنى بها المريدون وأتباع الشيوخ فى مجالس الذكر وحلقات الموالد ، وإن لهم فى هذا طريقة يسمونها « بالتخمير » يتطارحون فيها الأدوار على البديهة ، ويتغنون بها بنغم يصدر من القلوب ، فيأتون فى ذلك بالرائع المطرب .

هذه كلها آثار ومظاهر جديرة بالدراسة والتحقيق لما لها من التأثيرات العميقة فى حياة الشعب ، وتكييف الآراء والمعتقدات التى تحيا بها البيئات الشعبية فى المجتمع المصرى ، ولكنها لم تجد التفاتاً من عناية الباحثين فى التاريخ والأدب ، والمعنين بتفهم روح الشعب المصرى وعقليته . ولقد عنيت عناية خاصة بذلك التراث الشعبى الحافل منذ سنوات ، وشغفنى ما فيه من ألوان ممتعة تصور روح البيئة الشعبية أبلغ تصوير ، وتؤثر فى إتجاهاتها أعمق تأثير (١) .

(١) راجع ما كتبناه فى مقدمة كتاب « أبو زيد الهلالى » الذى نشرته دار المعارف ، وكتاب « ألوان من الفن الشعبى » .

لهذا أخرجت من قبل كتاب « أبو زيد الهلالى » حلقة أولى من سلسلة متصلة الحلقات فى دراسة ذلك التراث الشعبى ، وإنى اليوم لأقدم إلى القراء كتاب «السيد البدوى» حلقة ثانية فى هذه السلسلة ، وليس قصدى فى هذا الكتاب أن أترجم للسيد البدوى وأن أكشف حقيقته التاريخية فحسب . وإنما القصد الأول هو أن أكشف عن حقيقة تلك العقائد التى تملأ وجدان الجماهير الشعبية فى التعلق بسكان الأضرحة والقباب العالية ، والإذعان لسلطانهم إذعاناً لا حد له ، ثم عن مبلغ ما لذلك من التأثير العميق فى اتجاهات الشعب ، وتكييف ميوله وعواطفه ، وإنما آثرت « السيد البدوى » مثالا لشرح هذه الحقيقة ، لأنه يعتبر قطب الأقطاب فى مصر ، ولأنه أقوى أولئك الشيوخ نفوذاً ، وأكبرهم سلطاناً ، وأوسعهم شهرة ، وأكثرهم أتباعاً ، وأشدهم تأثيراً ، فهو أقوى وأتم شاهد يمثل تلك الحقيقة من جميع نواحيها . ولكنى قبل أن أخوض بك فى هذا كله أرانى مضطراً إلى أن أرجع بك إلى الوراء ، وأن أحدثك فى فصل خاص بطرف من أخبار العلويين واتجاهات دعوتهم ودعاياتهم مع تطور الأيام والأحداث ، حتى تعرف من السيد البدوى . ولماذا جاء إلى مصر ، وإلى أى غرض كان يهدف ، وماذا بلغ فى الوصول إلى ذلك الهدف ، وماذا خلف وراءه من آثار ومعتقدات فى البيئة الشعبية ...

الفصل الأول

العلويون وإستغلالهم التصوف فى طلب الحكم

منى الإسلام وهو لما يزل فى عنفوان شبابه بذلك الخلاف العنيف الذى قام حول الأحق بالخلافة والأولى بإمامة المسلمين ، فكان هذا مما فرق المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وباعد بينهم فى تقرير مسائل الدين وتقدير مطالب الدنيا ، كما أثار فيهم روح العصبيات ، وأدى إلى كثير من الثورات العنيفة والحروب الدامية التى دكت دعائم الإمبراطورية العربية وفرقتها أشلاء ، ثم انتهت بالمسلمين آخر الأمر إلى التدهور والتقهقر ، ثم الرقود والاستسلام ...

وضحت مظاهر هذا الخلاف على أثر مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ثم كان مقتل على بن أبى طالب مما وسع الهوة فيه وأبعد الشقة به ، فاقترن قيام الحكم الأموى بقيام ثلاثة أحزاب قوية تتنازع على هذا الحكم وتناضل فى سبيل الظفر به ، فكان هناك حزب أهل المدينة الذين كانوا يرون فى استئثار بنى أمية بالحكم إنتصاراً لأعدائهم القدماء من مشركى مكة ، وحزب الخوارج الذى كان يقول باختيار الخليفة الكفء مهما تكن الطبقة التى ينتمى إليها

على أن يتنحى إذا فقد ثقة الأغلبية ، ثم حزب الشيعة وهم أنصار على وأبنائه والمناضلون عن حقه فى الخلافة .. وقد وقف الأمويون يناضلون هذه الأحزاب بالسيف نضالا قاسياً لا رحمة فيه ، حتى استطاعوا أن يقضوا على حزب الأنصار بعد قتل عبد الله بن الزبير ، وأن ينكلوا بالخوارج بعد قتل القائد الخارجى الكبير قطرى بن الفجاءة ، وكذلك كان موقفهم من الشيعة وأتباع آل البيت ، إذ أخذوهم بالقسوة ، وصبوا عليهم وعلى أتباعهم البلاء صباً(١) . وكانت بداية هذه الشناعات أن قتل جيش يزيد بن معاوية الحسين بن على فى كربلاء قتلة شنيعة منكرة أثارت المشاعر وهزت النفوس هزاً ، ثم تتابعت نكبات الأمويين للعلويين وأتباعهم تقتيلا لرجالهم ، وتشريداً لأطفالهم ، وعسفاً بأنصارهم ، فكان هذا كله مما ملأ قلوب العامة بالعطف على العلويين فى محنتهم ، وأثار فى الناس ثائرة الأسى والأسف أن يكون هذا مصير أبناء البيت الكريم والعترة الطاهرة .

وليس مما يعنينى هنا أن أقص عليك تاريخ هذا النزاع الطويل بين الأمويين والشيعة ، ولا أن أروى لك ما وقع فيه من الأحداث والثورات ، وما ارتكب من الفظائع والشناعات ، فإن ذلك موضعه كتب التاريخ الخاصة ، وقد جرد المؤرخون فيه الأسفار الوافية والكتب المطولة ، وإنما القصد أن أدلك على ما كان لهذا النزاع

(١) راجع كتاب السيادة العربية تأليف فان فلوتن ص ٦٨ وما بعدها من الترجمة العربية .

من تأثير فى تطور التفكير الدينى والثقافى والسياسى ، وما أدى إليه من صبغ العقيدة الإسلامية بصبغة ملفقة من الإسرائيليات والأساطير القديمة ، ذلك لأن كثيراً من العناصر المختلفة وأصحاب المآرب المتهمة قد انضموا إلى آل البيت فى هذا النضال . انضم إليهم الناقمون بصفة عامة على الحكم الأموى من الموالى وأبناء الأمم الأخرى الذين استفزهم ما رأوا من تعاظم الأمويين بالنعرة الجنسية ، وتعاليهم بالأرستقراطية العربية ، وانضم إليهم كثيرون من أبناء فارس ممن درجوا فى حياتهم الأولى على تقديس الملوك وتعظيم البيت المالك ، فلما دخلوا الإسلام نظروا إلى النبى صلوات الله عليه نظرتهم إلى ملوكهم ، ونظروا إلى آل بيته على أنهم سلالة الملك والرياسة وأحق الناس بالإمامة والخلافة ، وانضم إليهم جماعات من أبناء الملل الأخرى دخلوا الإسلام بروحهم الأصيلة وعقائدهم القديمة ، وكان قصدهم من التشيع أن يجدوا مجالا لبث تعاليمهم ، ونفث سمومهم ، وإذاعة عقائدهم تحت ستار الإسلام والانتصار له ، فكان هؤلاء جميعاً يتعصبون لآل البيت ، فيطالبون بحقهم فى الخلافة والإمامة ويدافعون عن هذا الحق دفاعاً فكرياً يلبسونه لباس الدين ، ويصطنعون له ما يصطنعون من البراهين الإقناعية والروايات الابتداعية ، ومنهم من يقصد إلى ذلك فى إتزان واعتدال ، ومنهم من يبالغ فيه إلى حد الشطط والإسراف(١) .

(١) انظر ضحى الإسلام ص ٢٠٨ وما بعدها ج ٣ .

كان هناك السبئية الذين يقولون إن جزءاً إلهياً تجسد فى على ثم فى خلفائه الأئمة من بعده ، ويرون إن ابن ملجم لم يقتل علياً ولكنه قتل الشيطان الذى تشكل بشكله ، ويعتقدون أن علياً يجىء فى السحاب ، فالرعد صوته والبرق ضحكه ، إلى آخر ما يرجمون فى ذلك . وكان هناك الكيسانية الذين يعتقدون أن الله اختص علياً والأئمة من أبنائه بالعلوم الإلهية وبعلم التأويل والباطن ، وأن الدين يتحصل بطاعة الإمام منهم ، وأن هذه الطاعة تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام ، إلى آخر ما يهرفون من هذا القبيل ، وكان هؤلاء الكيسانية ومعهم الهاشمية أنصار أبى هاشم بن محمد بن الحنفية يقولون : إن لكل ظاهر باطناً ، ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة فى ذلك العالم ، والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى ، وهو العلم الذى استأثر على عليه السلام به ابنه محمد بن الحنفية ، وقد أفضى محمد بذلك السر إلى إبنه أبى هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً »(١) . وقد كان هذا الاعتقاد — كما يقول المستشرق فان فلوتن — مما فتح الباب لتسرب كثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة ، تلك العقائد التى انتقلت إليها عن المجوسية والمانوية والبوذية وغيرها من العقائد التى كانت سائدة فى آسيا قبل ظهور الإسلام ، كما وجدت العقائد البابلية القديمة والآرية وغيرها

(١) راجع ما كتبه الشهرستانى فى « الملل والنحل » عن هذه الفرق .

الطريق إلى نفوس هؤلاء ، وهكذا نشأ من اختلاط هذه العقائد بالإسلام مذاهب جديدة طالما كانت تظهر فيها العقائد الإسلامية فى فيض من الخرافات والبدع (١) ، وطلع دعاة من الشيعة على الناس باتجاهات حادثة فى الدين كانوا يستقونها من الإسرائيليات ، ويزجونها إلى الناس مدعمة بالأحاديث الموصولة والآثار المزعومة والروايات المخترعة ، وما يزعمونه من علم الغيب والباطن الذى اختص الله به علياً وذريته ، فظهر القول بالرجعة ، والاعتقاد فى المهدى المنتظر ، وفشت مدارسة الملاحم ، وكثرت التنبؤات عن الإمام العادل ، وعما سيكون من حال الدولة فى الحكم ، وكان لهذا فعل السحر فى النفوس والأخذ بزمام القلوب ، وكان الأمويون يقدرون الخطر الكامن الذى يتهددهم من وراء هذا كله ، حتى أن الخليفة هشام ابن عبد الملك كتب إلى واليه على الكوفة يقول : « أما بعد ، فقد علمت بحال أهل الكوفة فى حبهم أهل هذا البيت ، ووضعهم فى غير مواضعهم . لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ، ووظفوا عليهم شرائع دينهم ، ونحلوهم علم ما هو كائن (٢) » . ولقد أراد الأمويون أن يواجهوا الشيعة فى هذا المضمار ، وأن يؤيدوا أمرهم عند العامة بمثل هذه العقائد الغيبية والتنبؤات عن المستقبل ، ولكنهم لم يبلغوا فى هذا كثيراً ، فإن طوفان الشيعة كان أقوى وأعنف . على أن الشيعة

(١) السيادة العربية والشيعة ص ٨٤ وما بعدها من الترجمة للعربية

(٢) الطبرى ج ٢

قد تجاوزوا فى هذا عقائد الديانة إلى أحكام الشريعة ، فأكثروا فيها من الرخص ، وأباحوا بعض المحظورات ، وقالت بعض الفرق منهم بإسقاط بعض الفروض الدينية (١) ، ولا يخفى عليك أن هذا كله مما يغرى العامة بالاستجابة لهم ، والانطواء تحت لوائهم .

والحق أن الأئمة من أهل البيت قد استنكروا بادىء الأمر هذه المغالاة فى شأنهم ، واستنكفوا أن يلصق هذا بهم ويذاع عنهم ، ولكنهم لشدة ما عانوا من قسوة الأمويين أخذوا يستغلون هـذا لصالحهم ، ولتأييد دعوتهم ، بل أن الإمام أبو هاشم بن محمد ابن الحنفية قد تولى بنفسه تنظيم هذا الأمر وتنظيم الدعاة له على طريقة سرية بارعة ، فكان داعى دعاته يقيم فى الكوفة ، وكانت رسله تجوب أرجاء العراق متنكرين فى مظهر التجار ، ويقولون أن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أوجس خيفة من أبى هاشم هذا فدس عليه رجلا وضع له السم ، فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله وهو عائد من الشام فى قرية الحميمية أوصى بالأمر من بعده إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس خوفاً من ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، وعرفه بأسماء داعى دعاته فى الكوفة ومن يليه من الدعاة المتفرقين فى الأرجاء ، وعلى هذا توالى أعيان الشيعة على محمد بن على وبايعوه على طلب السلطان ، فقبل منهم البيعة ونصح لهم أن ينطلقوا

(٢) راجع ما كتب عن فرق الشيعة فى فجر الاسلام ج ٣ وفى كتاب السيادة العربية لفان فلوتن قسم الشيعة والإسرائيليات .

إلى الآفاق لدعوة الناس إلى هذا الأمر فى رفق وتستر . وتم الرأى على تنظيم أسس الدعوة وطرقها بتأليف جمعية أشبه بمجلس الشورى تحت رئاسة داعى الدعاة قوامها إثنا عشر نقيباً كما كان مجلس الحواريين عند الإسرائيليين ، وسبعون داعياً على نحو ما كان فى مجلس الشورى الذى رتبه النبى صلوات الله عليه من أهل المدينة(١).

وهكذا خرج أولئك الدعاة على ما شرط لهم إمامهم يجوبون أقطار العراق وخراسان وغيرها من الولايات الإسلامية ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج ، وغايتهم الدعوة إلى آل البيت ، وتكوين العصبيات للنهوض بهذه الدعوة ، فكانوا يصورون للناس استبداد الأمويين أسوأ تصوير ، ويقنعونهم بأنهم لا خلاص لهم من البلاء الذى هم فيه إلا إذا ولى أمرهم آل البيت الذين اختصهم الله بالعلم الغزير والخير الوفير والبركة العميمة ، فكان هذا كله مبعث تلك الثورة العاصفة التى اجتاحت الدولة الأموية وذهبت بريح الأمويين ..

قضى الأمر وتم الحكم للعباسيين على ما وعته كتب التاريخ ، وليس هنا موضع الإفاضة فيه ، وكان أن انتقلت دائرة الخلاف العنيف مما كان جارياً بين آل البيت والأمويين إلى أبناء العمومة من العلويين والعباسيين ، بل لقد أصبح الخلاف أشد عنفاً ، وأشنع عسفاً ، وأفظع كيداً وانتقاماً ، ذلك أن العباسيين كانوا على علم

(١) راجع الطبرى والأخبار الطوال للدينورى والسيادة العربية الفان فلوتن

بحقيقة ما يدبره العلويون من أساليب ، وما يرممونه من خطط فى إثارة النفوس وجمع الأنصار وطلب الحكم ، لأنهم كانوا صفاً واحداً فى هذا الطريق من قبل بأزاء الأمويين . ومن ثم أخذوا يضيقون عليهم الخناق ويأخذونهم بالقسوة والشدة(١) ، على أن العلويين لم يهنوا أبداً بأزاء هذا، ولم يتراخوا لحظة فى طلب الحكم، ومضوا فى هذه السبيل يدبرون أساليب ماهرة ماكرة يتقون فيها تسلط العباسيين من جهة ، ويعرفون كيف يتسلطون بها على النفوس من جهة أخرى ، ولقد تفرق دعاتهم فى الأطراف النائية يبثون لهم الدعوة فى ألوان مختلفة من ألوان الثقافة والتفكير ، فاستغلوا فى ذلك التأويل لنصوص الشريعة ومسائل الفقه ، واستغلوا القصص والتحدث بالمناقب والمآثر ، واستغلوا ما دخل على التفكير الإسلامى من أساليب الجدل وعلم الكلام، وكل ما شاع من الاتجاهات الفلسفية والنزعات الباطنية ومسائل التنجيم والفلك واستطلاع الغيب ، وغير ذلك مما رأوا فيه تأييداً لدعوتهم وتزيينها للنفوس . وفى هذا المجال بدت للعلويين ناحية مفتوحة فدبروا الخطة للنفوذ منها فى دهاء وبراعة. ذلك أنهم رأوا أن العباسيين قد بلغوا كفايتهم من حياة الترف ، وبالغوا فى الأخذ بمظاهر النعيم ، وتبينوا من وراء ذلك ما يساور الطبقات من ضجر وسخط على هذه الحال ، ولما كان التصوف قد وضح فى الحياة الإسلامية يومذاك ظاهرة اجتماعية ، ولما كان

(٢) فجر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨١ .

المتصوفة قد أصبحوا فى المجتمع الإسلامى قوة لها تأثيرها فى اجتذاب النفوس والتأثير فيها، فقد استغل العلويون هذه الناحية لمواجهة العباسيين، وسرعان ما ظهرت آثار هذا الاستغلال، فأصبحت تعاليم الصوفية قائمة على تعاليم الشيعة وترتيباتهم، وما أحدثوه فى مجال الدعوة لهم، وقد فطن العلامة ابن خلدون إلى هذا القصد إذ يقول فى المقدمة :

« ثم حدث عند المتأخرين من الصوفية الكلام فى الكشف وما وراء الحس، وظهر من كثير منهم القول بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإلهية فيهم، وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال، وكأنه يحاكى مذهب الرافضة فى الإمام والنقباء، وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا فى الديانة بمذهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة أن علياً رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم، ولا يعلم هذا عن على من وجه صحيح . ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلى كرم الله وجهه، بل الصحابة كلهم أسوة فى طريق الهدى، وفى تخصيص هذا بعلى دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها — ومن غيرها — من القوم دخولهم فى التشيع وانخراطهم فى سلكه، وظهر أيضاً منهم القول بالقطب، وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر، وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض، وهو مبنى على أصول واهية

من الفريقين، وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين فى القرانات وهو من نوع الكلام فى الملاحم، وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين فى شأن الفاطمى ابن عربى فى كتاب « عنقاء مغرب »، وابن قسى فى كتاب « خلع النعلين »، وعبد الحق بن سبعين وابن أبى واصل تلميذه، وأكثر كلماتهم فى شأنه أشعار وأمثال، وربما يصرحون فى الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم (١) ».

هكذا اصطبغ التصوف بمقاصد الشيعة وبتعاليمهم، وهكذا صار المتصوفة أداة لبث الدعوة للعلويين تحت هذا الستار، فكانوا يحدثون الناس أحاديث الزهد والورع وما ينطوى عليه الترف من الشرور والآثام، ويقرنون ذلك بالحديث عن الإمام المخلص والمهدى المنتظر، ويفيضون فى ذكر مناقب آل البيت وفضائل الانتساب إليهم، ولقد كان لهذا أثره فى تكوين العصبيات للعلويين، كما كان له أثره فى توجيه التصوف هذه الوجهة، حتى تضاءل آخر الأمر فلم يعد إلا سرداً لمناقب آل البيت، وخرقة تربط المتصوف بالانتساب إليهم

ومهما يكن من شىء فإن العلويين قد وصلوا إلى مقاصدهم فى الملك والحكم من هذا الطريق .. فعلى أساس التصوف قامت دول المرابطين والموحدين والأدارسة فى المغرب، ثم الدولة الفاطمية بالمغرب وبمصر والشام، فلما أن ذهبت ريح تلك الدول، وانتهى أمر الفاطميين فى مصر، وغلب على ملك المسلمين الأعاجم وأوزاع

(١) راجع ما كتبه ابن خلدون فى المقدمة عن التصوف والفاطمى المنتظر

الأمم الأخرى ، عاد العلويون وأنصارهم يعتملون على التصوف فى تربية العصبيات ، وإثارة النفوس لطلب المجد الذاهب ، والحرص على أن تكون خلافة المسلمين علوية قرشية ، فكان أبو مدين الغوث فى المغرب يبث هذه التعاليم تحت ستار التصوف ويربى عليها المريدين فيرسلهم بها إلى الآفاق والأمصار ، وفى هذا الوقت كان الشيخ أحمد الرفاعى ينهض بمثل هذه الدعوة فى بطائح العراق ، وكان يجمع حوله حشداً من المريدين والأتباع تقول كتب المناقب أنه بلغ مائة ألف(١) ، وما كان القصد من إعداد هؤلاء المريدين إلا أن يكونوا رسلا لهذه الدعوة فى أقطار الأرض ، ولقد تبين العلويون من خلال هذا أن عصبياتهم تفرقت فى الآفاق ، وأن خير مكان يمكنهم أن يتجمعوا فيه للإشراف على توجيه هذه الدعوة هو موطنهم الأول فى مكة ، حيث أصبحت بلداً آمناً لا يخافون فيه على أنفسهم ، وحيث لهم فيه من عصبيات النسب ما يعينهم فى جمع الكلمة ، ومن ثم أخذت جميع الأسرات العلوية التى تفرقت من قبل فى الأطراف النائية تتوافد على مكة بقصد الحج ، وما كان هذا الحج بالنسبة لهم إلا مؤتمراً يدبرون فيه خططهم وتوجيهاتهم ، وقد كان السيد البدوى والد السيد أحمد البدوى أحد أولئك العلويين الذين نزحوا من المغرب إلى مكة بقضهم وقضيضهم مصطحباً أسرته بجميع أفرادها

(١) قلائد الجواهر فى مناقب الجيلانى

وعتادها وبينها السيد أحمد البدوى وهى صبى لم يتجاوز الحادية عشر من سنه(١) .

ومن المعروف أن مصر بعد أن تقلص عنها حكم الفاطميين دخلت تحت حكم الأيوبيين. ولكن لم يكن من السهل على العلويين أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، كما لم يكن من السهل أن تتخلص النفوس من تعاليم الفاطميين فى الدين والتشيع والملك ، تلك التعاليم التى أقاموا لها الدعايات القوية المنظمة ، وأرصدوا لها كل فطنتهم ومهارتهم حتى أساخوا اسناخها فى صميم القلوب عقيدة راسخة ثابتة فى آل البيت ، فكان العلويون تواقون فى كل لحظة الى استثارة هؤلاء الأتباع فى استعادة أمرهم ، وما كان لهم من مجد فى ربوع مصر ، وكثيراً ما دبرت المؤامرات ، ورسمت الخطط فى الخفاء لهذا الشأن ، ولعل أقوى تلك المؤامرات المؤامرة التى اشترك فيها الشاعر الفقيه أبو محمد عمارة ابن أبى الحسين اليمنى الذى أخذ بهذه التهمة هو ومن معه من العلويين وأتباعهم فأعدموا فى عام ٥٦٩ للهجرة ، والواقع أنه لولا يقظة صلاح الدين الأيوبى ، ولولا أن الظروف جاءت بطبيعتها قوية عنيفة ، إذ شغلت أذهان المسلمين قاطبة بهجمات الصليبين الصارمة التى كانت تهدد العالم الإسلامى فى كيانه . نقول إنه لولا هذا لما تم الأمر للأيوبيين أكثر من يوم وليلة ، ولأفلح العلويون وأشياعهم

(١) راجع فى ذلك ما كتبه المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق فى السياسية الاسبوعية (١٩٢٧) عن المولد الأحمدى.

فى استعادة مجدهم بالديار المصرية على النحو الذى تحقق لهم فى هذا من قبل ؛

على أن العلويين لم يكونوا من الهوان بحيث يبدو لهم أن يستسلموا عند هذا ، وأن يقطعوا الأمر فى لهفتهم على مصر وغيرها من الأقطار ، ففكروا فى أن يجعلوا منها مركزاً من مراكز دعوتهم ودعايتهم ، وكان أن وفد على مصر أبو الفتح الواسطى لينهض بأعباء هذا الأمر تحت ستار من التصوف ؛

كان الشيخ أبو الفتح الواسطى داعياً خطيراً ، تتلمذ على السيد أحمد الرفاعى ، وكان من نجباء تلك المدرسة التى أقامها ذلك الصوفى الكبير فى بطائح العراق ، وقد شام فيه العلويون دعاة آل البيت نجابة وفطنة وصبراً يؤهله لحمل راية الطريق ، فندبوه للسفر إلى الديار المصرية ، فوفد على الإسكندرية من واسط عام ٦٢٠ للهجرة ليدعو للقوم على نهج الطريقة الرفاعية(١) ، ويظهر أنه آثر الإسكندرية بالمقام ليكون بعيداً عن دارة الملك فى القاهرة حيث عيون الحاكم يقظة ساهرة ، ويظهر أن الواسطى قد اصطدم بمقاومة عنيفة من رجال الفقه والشريعة الذين لم يكونوا على وفاق مع الصوفية فى وجهتهم ، فيقول الشعرانى فى طبقاته : «وكان الواسطى مبتلى بالإنكار عليه ، وعقدوا له المجالس بالإسكندرية وهو يقطعهم بالحجج » ، ولكن الواسطى استطاع على الرغم من هذا كله أن يجمع من حوله

(١) المصدر السابق

مشيخة كبيرة ، وأن يؤلف حشداً من الأتباع والمريدين ، ثم عاجلته المنية وهو فى ريعان مجده ، فأسف العلويون على الفجيعة فى ذلك الداعية البارع الذى خدم دعوتهم بصدق وإخلاص ، ومهد لها الطريق على ما يريدون فى الديار المصرية ، وكان عليهم أن يدبروا فيمن ينهض بهذا الأمر من بعده ، فندبوا لذلك السيد أحمد البدوى لما توسموا فيه من براعة واقتدار وخبرة بمداخل الطريق(١) خاصة وأن للسيد معرفة سابقة بمصر ، اذ أقام فيها مدة وهو فى مقتبل العمر عند رحلة أسرته من المغرب إلى مكة كما أشرنا إلى ذلك من قبل ..

وأنت إذ عرفت هذا فإنك لا شك فى لهفة إلى معرفة من السيد البدوى الذى جاء لحمل هذه الدعوة .. وماذا صنع فى توجيه هذه الدعوة .. فموعدنا بهذا معك الفصل التالى .

(١) المصدر نفسه

الفصل الثانى

حياة السيد وسيرته

حياة غامضة :

وليس من السهل أن أقص عليك حياة السيد أحمد البدوى كشرط البحث الحديث فى الإحاطة والتقصى ، والتحليل والتعليل ، ذلك لأن المؤرخين لم يعرضوا إلا لما بدا من معالم تلك الحياة ومظاهرها ، ولم يحدثوا عنه إلا بما تناقلته الألسن من الأخبار والروايات ، وليس هناك مؤرخ معاصر له عنى بالكشف عن حقيقته ، والترجمة لحياته ، واعتماداً على هذا يرجح الباحث المحقق الأستاذ أحمد شاكر أن يكون السيد البدوى خرافة تجسمت فى أوهام الناس حتى صارت عقيدة راسخة ، كمثل ما يعتقدونه فى الشيخ الأربعين ، والشيخ المتولى ، وغير ذلك من الشيوخ الذين لا حقيقة لهم إلا فى أوهام العامة والجاهلين(١) ، ونحن لا نوافق على هذا الرأى ، بل نرى فيه شيئاً

---

(١) حدثنى الأستاذ بهذا الرأى فى حديث جرى بينى وبينه ، والواقع أن فى مصر عشرات من الأضرحة والمزارات يحج إليها العامة ويتبركون بها وليس فيها أحد أصلا ، أوفيها من لايعرف الناس من أمره شيئا ، ومن المفارقات المضحكة فى ذلك أن بين المعصرة وحلوان ديرفيه ضريح لرجل يسميه الأقباط القديس برسوم العريان ويسميه المسلمون سيدى محمد العريان ، وفى كل عام يقام له احتفال يعتبره الأقباط عيدا ويعتبره المسلمون مولدا ، وأنهم ليجتمعون جميعا فى هذا الاحتفال وينحرون الذبائح ويقدمون النذور لهذا الذى يدعى كل من الأقباط والمسلمين تبيعته لهم . . . .

من الإسراف ، ولكنه على أى حال يدل على ما يساور الباحث فى الاعتماد على ما كتبه المؤرخون عن حياة السيد البدوى وما دونوه عن حقيقته ، فإن الباحث يجد فى كتاباتهم ثغرات يصعب سدها ، وأحكاماً يشق تحقيقها وقبولها .

والمريدون ورواة المناقب أفاضوا فى الحديث عن السيد ، وأسهبوا فى سرد أخباره وتاريخ حياته بما لا مزيد عليه ، ولكنهم أقحموا فى ذلك كثيراً من الأساطير والتلفيقات حتى جعلوا حياة شيخهم أسطورة كبرى ، وسلسلة من المناقب الخارقة والمدهشات التى تبلغ حد المعجزات ، بل إنها كثيراً ما تتجاوز هذا الحد فى شطط وإسراف . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن الصوفية كما هو معلوم يصطنعون فى التعبير عن مقاصدهم إشارات مبهمة ، وألفاظاً ملتوية ، وتعابير فضفاضة لا يربطون فيها بين الألفاظ ومدلولاتها الخارجية ، فهم أهل اصطلاح كما يقولون ، وهذا مما يضطر الباحث المحقق إلى عدم الاطمئنان لروايات أولئك المريدين ، والنظر إليها فى حذر ويقظة .

وأكثر من ذلك ، فإن السيد وإن كان يعتبر بين الصوفية قطب الأقطاب ، فإنه لم يخلف من ورائه ثروة علمية ذات قيمة ، حتى كان فى مكنة الباحث أن يتلمس فى أطوائها شيئاً من اتجاهاته ومقاصده ، وتحقيق وقائع حياته ؛ فحياة السيد تبدو أمام الباحث حياة غامضة فيما كتبه المؤرخون ، وما كتبه المريدون فى تاريخه ومناقبه . لهذا آثرنا

الأصل العلوى

أن نستخلص حياة السيد وسيرته من روايات السابقين على ما يقبله العقل من الأوضاع المألوفة فى الطبائع البشرية ، ثم على ما تقضى به الملابسات ، أعنى ملابسات ذلك العصر الذى كان يعيش فيه السيد ، والروح التى كانت سائدة فى حياة الناس ؛ ولعلى بهذا أستطيع أن استخلص نمطاً لتلك الحياة يرضى منهج البحث فى التاريخ ، ويرضى الذين يؤثرون الحقيقة على كل شىء .

أسرة السيد ونسبه :

وأسرة السيد هى النقطة الأولى التى يتجه إليها نظر الباحث فى حياته ، فقد روى الشيخ المناوى فى طبقاته أن السيد أحمد البدوى ينتمى إلى عرب بنى برى الذين كانوا يقطنون الشام ، وأن والده رحل بأسرته إلى المغرب وأقام فى فاس ، والشيخ المناوى بهذه الرواية يخرج على ما أجمع عليه المؤرخون من أن السيد ينتمى إلى أسرة علوية شريفة كانت تقطن مكة فى بداية الأمر ، وكانت تضطلع بالأحداث السياسية التى استفحلت فى النزاع بين العلويين والأمويين ، فلما اقتحم الحجاج بن يوسف الثقفى الحجاز ، ومكن للسيف من رقاب المنافسين لبنى مروان والمتمردين عليهم ، قام الشريف محمد الجواد بن حسن العسكرى أحد أجداد السيد البدوى ، فجمع بنى عمه ومن يعز عليه من قومه ، وهاجر بهم جميعاً إلى بلاد إفريقية ، ناجياً من ذلك البطش المسلط ، وكان شأنه فى هذا شأن مئات الأسر العلوية التى هاجرت من الحجاز ، ثم من

الشام والعراق إلى بلاد إفريقية ومصر وغيرها من الأطراف النائية نجاة بنفسها ، ثم لعلها تصيب مجداً يمكن لها من الأمر فى تلك البلاد . ويقول المؤرخون إن جد السيد الذى هاجر بالأسرة كان شيخاً جليلا له مكانة مرموقة بين قومه وفى وطنه ، ومن الطبيعى والمعقول أنه بمكانته هذه كان يشارك فيما يرومه العلويون من شئون الملك والسياسة ، وإلا لما خشى بطش الحجاج به ، ولما نهض لتلك الرحلة الشاقة التى لا يدرى ما وراءها ، ولو أنه كان يطلب العيش كما يطلبه عامة الناس ، لوسعه فى وطنه الأول ما وسع سائر الناس .

خرج هذا الشريف العلوى بأسرته يضرب فى فجاج الأرض حتى انتهى إلى المغرب ، ثم استقر فى فاس وارتضاها مقاماً ، وكانت هجرة الأسرة من مكة حوالى عام ثلاث وسبعين للهجرة ، وقد عمرت فى بلاد المغرب إلى عام ثلاث وستمائة ، فكأنها استوطنت تلك البلاد أكثر من خمسة قرون ، ولعل الذى أغراها على الإقامة طوال هذه المدة أن صارت بلاد المغرب فى تلك العهود مسرحاً لدعوات العلويين ، ثم أصبحت أخيراً مسرحاً لقيام الدولة الفاطمية حتى إذا ما تقلص ظل الفاطميين عن تلك الأقطار ، واضطربت الأحوال هناك ، وبدأ الحجاز فى نظر العلويين أهدأ وأليق لحركاتهم وتدبيراتهم مرة أخرى عادت هذه الأسرة تنشد وطنها الأول فى مكة كما عاد غيرها من الأسرات المهاجرة .

وتجمع الروايات على أن السيد أحمد البدوى قد ولد فى مدينة

فاس بمكان يقال له زقاق الحجر فى نحو عام ست وتسعين وخمسمائة للهجرة ، وأنه كان أصغر سبعة من الأخوات هم : الحسن ، ومحمد ، وفاطمة ، وزينب ، ورقية ، وفضة . وفى بعض الروايات أنه كان ثامن سبعة من الأخوات ، ولعل الذن آثروا عدد السبعة بالتحديد والاختيار ، وآثروا فى تقسيمهم أن يكون عدد الذكور ثلاثة وعدد الإناث أربعاً ، قد راعوا فى ذلك المشابهة بما هو مأثور عن أولاد النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ كانوا فى مثل هذا العدد وهذا التقسيم .

أما والد السيد ، فهو السيد على البدرى الشريف العلوى ، وأما أمه فهى السيدة فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبد الله ، يتصل نسبها أيضاً بالحسين بن على .

وهناك نسب طويل للسيد أحمد البدوى يرويه الأتباع والمريدون متسلسلا حتى على بن أبى طالب ، ثم يتدرجون به متسلسلا حتى معد بن عدنان ، وبعض الروايات تزيد فيه حتى تنتهى به إلى آدم ، ويروى هذا النسب الطويل عن رجل من الصوفية المتأخرين يقال له يونس بن أزبك الصوفى ، وترجح دائرة المعارف الإسلامية أن يكون هذا الصوفى هو الذى وضع هذا النسب(١)، ومن الواضح أن هذا الذى يقال عن تسلسل نسب السيد إلى معد بن عدنان وإلى آدم إنما هو من باب التلفيق والاختلاق، على أن الحقيقة المسلم بها

(١) الترجمة العربية للدائرة مادة أحمد البدوى

هى أن السيد علوى شريف ، فلم يكن دعياً فى هذا النسب ، ويعنينا هنا أن نقرر هذه الحقيقة لأن الإنتساب إلى العلويين كثر فيه الإدعاء والتلفيق ، وصار باباً يدخل منه كثيرون من أصحاب الأغراض الكبيرة والصغيرة، بل لقد صار فى العصر الأخير تجارة، وأصبحت الأنساب تخترع وتلفق فى سبيل المال .

نشأة السيد :

نشأ السيد إذن فى مدينة فاس ، على أنها كانت نشأة قصيرة الأمد ، فقد رحل والده بجميع الأسرة من المغرب إلى مكة عام ثلاث وستمائة للهجرة ، وكان السيد فى السابعة من عمره ، وكانت رحلة طويلة استغرقت أربعة أعوام كاملة(١) ، وتشير بعض الروايات إلى أن والد السيد قد نزل بأسرته وهو فى الطريق إلى الحجاز بمصر ، وأقام مدة فى القرافة ، وإذن فقد تعرف السيد فى هذه الرحلة على مصر التى استوطنها فيما بعد ، وليس من شك فى أن هذه الرحلة الطويلة الحافلة بالمشاهد كانت درساً أفاد السيد فى مطلع حياته خبرة بالبلاد وبطبائع الناس ، إذ ليس كالرحلات شىء يوسع المدارك ويعد الإنسان لتحمل المشاق فى التنقل والاغتراب .

وفى مكة قوبلت الأسرة بالحفاوة ، ووجدت مكانها ومكانتها بين الأهل والعشيرة ، وعادت فغامرت فى الميدان الذى كانت

(١) فكأن السيد وصل إلى مكة وسنه أحد عشر عاما كما قلنا من قبل .

تجاهد فيه الأسرات العلوية المقيمة والمجتمعة من مطارح الغربة ، وتدبر لبسط كلمة العلويين واستعادة نفوذهم(١) ، وفى هذا الوسط درج السيد بين رعاية والده وشقيقه الأكبر الحسن ، وقد نهض شقيقه بالعبء فى تثقيفه حتى حفظ القرآن الكريم وحذق تلاوته بالقراءات السبع ، وتفقه فى الشريعة على مذهب الشافعى . ومرن على أعمال الفروسية وركوب الخيل ، وقد اشتهر فى صغره بالصرامة وحدة الطبع وإيثار العزلة والانفراد ، حتى عرف بين أقرانه وأترابه بالغضبان والعطاب ، ،وأبو الفتيان ،ومهارش الحرب(٢) ،وقد اتسع باب الألقاب للسيد فيما بعد ، فسماه المصريون « باب الفرج » و« أبو فراج » . و« ندهة المنضام » و« صاحب اللثامين » ، و« ساكن طنطا» ، ودعاه أتباعه « بالقدسى » و« بالقطب » ، و« بالصمدانى » و« عز الرجال » و« البدوى » ،واللقب الأخير أكثر الألقاب شيوعاً عن السيد حتى أصبح علماً عليه بالغلبة كما يقول النحويون .

قطع السيد المرحلة الأولى من حياته فى الاستعداد على هذا الوضع ، ولم يلبث والده أن انتقل إلى جوار ربه ، ودفن « بباب المعلاة » قريباً من مكة ، فبقى السيد تحت رعاية شقيقه الحسن يتولاه بالإعداد والتوجيه .

---

(١) راجع الجواهر السنية والبحث الذى كتبه المغفور له الشيخ عبد الرازق بالسياسة الأسبوعية .

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية .

رحلة السيد إلى العراق :

وتبين العلويون فى السيد استعداداً يؤهله لحمل دعوتهم والنهوض بها على ما يقصدون من تزجية تعاليمهم تحت ستار التصوف . ولابد أن تكون أخبار أولئك الدعاة البارعين الباتعين الذين تفرقوا فى الآفاق يبثون دعوة العلويين فى جو من مواجد الصوفية قد ملأت سمع السيد ، واتجهت بوجدانه إلى هذه الحياة الحافلة بالإجلال والتفخيم ، وبسطة النفوذ على الأتباع والمريدين وغيرهم من عامة الجماهير ، ولذلك انتقل السيد — أو نقله قومه — إلى دور الإعداد العلمى والعملى لحمل هذه الدعوة والتهيؤ لها ، فرحل به شقيقه الحسن إلى العراق ليقف على اتجاهات الصوفية ويتلقى عن شيوخهم آداب الطريق ومظاهر التصوف ،وقد كان العراق كما قلت من قبل ميدان الدعاة والمنبت الخصيب الذى نمت فيه وربت دعوة الصوفية ودعاياتهم ؛حتى أصبح أشبه ما يكون بمدرسة لتخريج المتصوفة وإعدادهم لحمل لواء الطريق .

فى هذه المدرسة تخرج السيد وكمل إعداده ، فلقد التقى بالشيخ الصوفى ابن عرب ، فأخذ عنه آداب الدعوة ومداخلها ، وابن عرب هذا هو التلميذ الأول للسيد أحمد الرفاعى وشقيق أبى الفتح الواسطى الذى كان شيخاً لدعاة الطريقة الرفاعية فى مصر وقتذاك ، والذى جاء السيد إلى مصر ليحمل راية الطريق من بعده على ما سبق فى الفصل الأول ، وفى هذه الرحلة زار السيد ضريح الحلاج الصوفى

الذى قتل عام ٣١٩ هـ متهماً بالأخذ بعقيدة الحلول ، وقبر عدى ابن مسافر الهكارى المتوفى عام ٥٥٨ هـ ، وقبر السيد أحمد الرفاعى شيخ الطريقة الرفاعية المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ، وقبر السيد عبد القادر الجيلانى شيخ القادرية الجيلانية المتوفى عام ٥٦١ هـ(١) ، وأن هذه الزيارات لتدل على أن السيد قد شغف بالوقوف على اتجاهات هؤلاء الدعاة ، والإحاطة بما كان لهم من مداخل فى سلوك الطريق ، وإذاعة تعاليمهم بين الناس .

وإذا كان المؤرخون الذين أرخوا حياة السيد قد أشاروا إلى رحلته إلى العراق إشارة مجملة ، فإن الذين كتبوا سيرته من الأتباع والمريدين قد حشوها بالخرافات والأساطير ، ونسبوا فيها للسيد كثيراً من الخوارق والمحالات ، فهم يزعمون أن السيد لم يرحل إلى العراق إلا بعد أن انتقل إليه السيد الرفاعى والسيد عبد القادر الجيلانى وغيرهما من الأولياء والصالحين فى الرؤيا وهو بمكة ، ورجوه أن يتفضل بزيارتهم فى العراق، وأن يرحل إليهم ليحمل راية الطريق، ثم يزعمون أن الرفاعى والجيلانى عرضا على السيد أن يسلماه مفاتيح البلاد والعباد ويأخذ منها ما يشاء ، ولكنه أبى قائلا : « لا آخذ المفتاح إلا من يد الفتاح » ، ويزعمون أن رجالا من العرب « تصدوا للسيد وشقيقه الحسن وهما عائدان من زيارة عدى بن مسافر ، فوقف لهم السيد قائلا : يا قوم إلزموا الأدب ، فنحن من أهل

(١) دائرة المعارف الإسلامية والجواهر السنية

الحسب والنسب ، من قبل أن يقع عليكم الغضب ، ويحل بكم العطب ثم أومأ إليهم بيده ، وقال لهم موتوا باذن الله تعالى : فوقعوا على الأرض كالقتلى ، ثم قال لهم قوموا باذن من يحيي الموتى و يميت الأحياء ، فقام الجميع وقبلوا الأقدام واستأذنوا فى الانصراف » ، ثم يزعم أولئك المريدون أن السيد تصدى فى هذه الرحلة لفاطمة بنت برى التى « غلبت الرجال وسلبت الأبطال ، فغلبها السيد وجعلها تذعن له وتعرض عليه أن يتزوج منها ، ولكنه أبى ورفض »(١) إلى آخر هذه القصة التى سنعرض لها فيما بعد .

ونحن نرى أن هذه الخوارق التى لفقت على السيد وألصقت به فى رحلته إلى العراق إنما لفقت فى عصر متأخر ، أى عندما أصبحت حياة السيد أسطورة فى روايات الدراويش والمريدين ، ومادة للإرتزاق وكسب الوجاهة عند العامة والمثالة بين الناس .

أتم السيد رحلته فى أنحاء العراق ، وحصل فى هذه الرحلة ما حصل من معارف القوم ، وخبر اتجاهاتهم فى رياضة النفوس وما لهم من المواجد والأحوال فى حمل لواء الطريق وجمع المريدين ، وتلاقى كل هذا بما فى طبيعة السيد من استعداد وتقبل ، فاكتملت شخصيته وأصبح مثال «الإنسان الكامل» عند الصوفية خبرة ومعرفة وصبراً واحتمالا ونفاذ بصيرة ، مما يؤهله لأن يكون رأس دعوة يروم أسبابها ويدبر خططها ، ويصلها بقلوب الأتباع وبنفوسهم ،

(١) الجواهر السنية .

وهذا هو الأمل الذى كان يعقله العلويون على السيد . وهنا تتضارب الروايات فبعضها يشير إلى أن السيد عاد من العراق إلى مكة بصحبة أخيه الحسن ينتظر المهمة التى تلقى على عاتقه، وبعضها يشير إلى أنه جاء من العراق إلى مصر ، وأن أخاه الحسن سافر من هناك إلى مكة(١) ، وليس بين أيدينا من النصوص القاطعة ما يجعلنا نفصل فى هذا التضارب برأى حاسم ، ومهما يكن من شىء فان الفترة بين إقامة السيد فى العراق وانتقاله إلى مصر لا تكاد تذكر ، وأنه لم يكد يتم حياة الاستعداد والتهيؤ هناك حتى كانت الظروف قد تهيأت ، بل حتمت انتقاله إلى مصر .

ساكن طنطـــا :

جاء السيد البدوى إلى مصر قادماً من مكة ليحمل راية الطريق كما كان يحملها أبو الفتح الواسطى على ما مر بك ، وكان من المعقول أن يقيم فى الإسكندرية حيث كان يقيم الواسطى أيضاً. ولكنه مر وهو فى طريقه إليها بطنطا — أو طنتدا كما تسمى فى الخطط القديمة — فارتضاها مقاماً ، وعول على أن تكون موطن دعوته ، وصرف نفسه عن الإسكندرية وما خلف الواسطى فيها من أثر . ولم تكن طنطا من الشهرة ومن استبحار العمران ما هى الآن ، فقد كانت المحلة الكبرى منذ الفتح العربى عاصمة الغربية ، وكانت طنطا إلى

---

(١) المصدر السابق .

جانبها مدينة ثانوية أو قرية كبيرة على الرغم من أنها من المدن المصرية القديمة ، ولم تصبح مقصداً للوافدين من أنحاء الديار المصرية ومركزاً لحركة تجارية واسعة ، إلا بعد أن دفن بها السيد البدوى وتقرر إقامة الموالد له بعد وفاته ، وأنشىء بها الجامع الأحمدى لطلب العلم على غرار الأزهر ، وكان أن تقرر جعلها قاعدة للغربية فى عهد محمد على باشا رأس الأسرة العلوية .

وعجيب من البدوى أن يأخذ ذلك المأخذ ، وأن يتخلى عن تركة واسعة خلفها له الواسطى فى الإسكندرية من الأتباع والمريدين ، فما كان عليه إلا أن يجلس لاستغلال هذه التركة وتنميتها ، وليبسط نفوذه على أصحاب الواسطى وأتباعه ، لا أن ينتحى ناحية جديدة ليزرع فيها زرعاً جديداً ، وليجمع فيها الأتباع والأشياع من جديد

ولكن الرجل كان ذكياً فطناً . فقد جاء إلى مصر وافداً غريباً وهو يعلم ما يساور نفوس الأيوبيين الذين يحكمون البلاد من الريبة فى كل حركة تتراءى لهم ، حتى لا تكون مؤامرة لإعادة سلطان الفاطميين ، فماذا يقولون فى شيخ غريب وافد من مكة ، وصلته معروفة بالمغرب الذى هو الموطن الأول للدعوة الفاطمية ، وقد جاء إلى مصر ليرث شيخاً صوفياً فى دعوته ، ويزيد فى جمع الأتباع والمريدين على طريقته ؟ .. وأكثر من ذلك فقد كانت الإسكندرية يومئذاك كما كانت جميع الثغور تحت مراقبة الحكام ، ومجال عيونهم وأرصادهم إحتياطاً لما يقع عليها من الإغارات الصليبية، ويقظة لما

يجرى فى تلك الأطراف من منازعات واتجاهات ودسائس . كان السيد يعرف هذا ، وكان الرجل يؤثر السلامة فى دعوته ويأخذ لها طريق الإرشاد والهداية حتى تختمر وتخالط النفوس عقيدة راسخة ثابتة ، وكان من أهل التقية فيما يرى من رأى . وفيما يسعى إليه من غرض . وتلك كانت وجهة العلويين وخطتهم التى آثروها فيما يرومون من شأن(١) .

لهذا كله آثر السيد فيما يبدو لنا أن ينفرد فى طنطا وأن يتخذها دار إقامة ، وأن يجعلها قاعدة لدعوته وأتباعه حتى يكون بعيداً عن أنظار أهل السلطان ، وحتى يكون فى موضع وسط من البلاد ، ثم ليكون على مقربة من موطن الدعوة التى نهض بها الواسطى ، إذ من المعلوم أن طنطا على الطريق إلى الإسكندرية .

ويعرض الذين كتبوا سيرة السيد من الأتباع والمريدين لهذه المسألة ، فيقررون أن طنطا عينت له تعييناً ليتخذها مجال دعوته ، وهم يسندون هذا التعيين إلى رؤيا رآها السيد وهو فى مكة ، فنهض على صوت الهاتف يأمره بشد الرحال إلى طنطا والإقامة فيها . وقد يكون هذا الذى يرويه الأتباع تعبيراً عن المعقول فى هذه الواقعة ، وهو أن العلويين الذين أوفدوا السيد البدوى إلى مصر قد عينوا له طنطا مقاماً ، ومهما يكن من شىء ، وسواء أكان المقام فى طنطا قد عين للسيد أم هو الذى ارتضاه وآثره ، فليس من شك فى أن

(١) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٤٦ وما بعدها .

اختيار هذا البلد للإقامة يرجع إلى ما قدمنا بين يديك من الأسباب ، ثم إنه لا شك أن اختيار جاء موفقاً يدل على الحيطة وبعد النظر ، وماذا كانت طنطا تكون لولا أن استوطنها السيد البدوى ؟ !

فى دار ابن شحيط :

استوطن البدوى طنطا ، ونزل بدار ابن شحيط ، ويسميه أتباع السيد الشيخ ركين الدين ، وكل ما نعرفه عن تاريخ ابن شحيط هذا أنه كان شيخاً للبلد ، وأنه كان على جانب كبير من الجاه والنفوذ ، وكانت له تجارة رابحة(١) ، ولكننا لا ندرى لماذا أفسح للسيد فى جانبه إلى هذا الحد ، وتقبله هذا القبول الحسن ؟ فلعله كان مأخوذاً بتعاليم الصوفية ، أو كان من أتباع أبى الفتح الواسطى ، وربما كان بقية من بقايا الفاطميين الذين امتلأت قلوبهم بحب العلويين ، وشغفت نفوسهم بمناقب آل البيت . قد يكون هذا ، أو لعل هذا الرجل كان صاحب غرض هو الآخر ، فكان له فيما قدم صنيع ومأرب ..

ويقولون إن السيد لزم سطح دار ابن شحيط هذا مدة طويلة بلغت عشر سنوات ، ويقولون إنه استطاع فى سبعة أشهر أن يجمع من حوله أربعين شيخاً من المريدين والأتباع الذين اختصهم بالقرب منه ، وسمح لهم بالصعود إلى حيث كان يجلس على السطح(٢) .

(١) البحث الذى كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق

(٢) المصدر السابق

ولهذا سموا « بالسطوحية » .. وكان رأس هؤلاء المريدين الشيخ عبد العال الفيشاوى ، من بلدة « فيشا المنارة » إحدى ضواحى طنطا ، ثم توزع هؤلاء المريدون فى أنحاء البلاد يحدثون الناس بمناقب السيد ويذيعون تعاليمه ، ويعددون كراماته ومعجزاته .. وهكذا استفاض الحديث عن السيد فى شتى أنحاء البلاد ، وصار ملء الأفواه والأسماع بفضل أولئك المريدين الدعاة ... وهكذا يظهر لنا أن السيد لم يكن ملازماً الخلوة على السطح للاستغراق فى الوجد والغيبوبة كما تحكى كتب المناقب ، بل لأنه كان متفرغاً لوضع نظام دقيق محكم أراد به أن يحكم نطاق دعوته فى طول البلاد وعرضها بين يوم وليلة .

بين السيد وابن دقيق العبد :

هذا الذى بدا من شأن السيد فى رواج دعوته ، وكثرة شيعته ، واستفاضة الأحاديث عنه . كان لابد أن يسترعى انتباه الحاكم على البلاد ، وكان صاحب مصر والشام فى ذلك الوقت الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعناه أن يتيقن أمر ذلك الشيخ الوافد الغريب الأطوار ، وأمر تلك الدعوة التى يزجيها إلى الناس .

ويظهر أن السيد أحس بالعيون من حوله ترصد حركاته ، ولكنه كان أحذق من أن يؤخذ على غرة ، فسرعان ما جعل من دار ابن شحيط زاوية لقراءة الدروس ومذاكرة العلوم ، وصار هو نفسه يقرأ دروساً فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ودروساً

أولية فى علم النحو ، وبهذا بدا السيد للعيان فى شأن آخر لا يحك فى الصدر بريبة(١) .

ونهض قاضى القضاء الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد لاستجلاء الحقيقة فى أمر السنيد ، فعهد أولا إلى الشيخ الفقيه عبد العزيز بن أحمد ابن سعيد الديرينى أن ينتقل إلى طنطا لامتحان السيد ، والوقوف على الحقيقة فى شأنه . فمضى الشيخ الديرينى إلى طنطا كما طلب إليه وقابل قاضيها الشيخ علاء الدين ، ثم توجه إلى حيث يقيم السيد ، فقابله ، وسأله فى بعض المسائل ، فأجاب عنها بأحسن جواب ، فعظم فى عينه واعتذر له ، وأرسل إلى قاضى القضاة يعلمه بما جرى ؛ وكان الشيخ عبد العزيز إذا سئل عن السيد يقول : هو بحر لا يدرك له قرار(٢) . ولكن الذين نقلوا هذه الرواية لم ينقلوا إلينا ما وقع فى المناظرة بين الرجلين من أسئلة وأجوبة ، فكنا نرى فيها لون التفكير الذى كان يسيطر على العقول والأذهان فى ذلك الوقت ، ونتبين فيها قدرة السيد على الجدل والمحاجة ، حتى استطاع أن يفوز منه بتلك الشهادة السخية العظيمة .

ويظهر أن ابن دقيق العيد لم يطمئن للملاك ، فأراد أن يقف بنفسه على حقيقة السيد وما يحكى عنه ؛ فسافر إلى طنطا وقابله ، فرأى من مظهره ما لا يبرر الاهتمام بشأنه كما يقولون ، ولكنه لما

(١) المصدر نفسه

(٢) كتاب علم الدين لعلى مبارك باشا جـ١ ص ١٣٢ ومابعدها

كلمه عرف قدره وعظمه واعتذر إليه . والواقع أن ابن دقيق العيد لم يكن بالرجل الذى يمكنه أن يواجه السيد ، وأن يسبر غوره بمنطق العقل وحجة الشريعة ، صحيح إنه كان هناك نزاع عنيف بين رجال التصوف وعلماء الفقه كما أشرنا إلى ذلك فى مقدمة الكتاب ..

ولكن ابن دقيق العيد كان من الفقهاء الذين ينزعون إلى حياة التصوف والزهد فوجهة السيد فى التصوف كانت وجهة قريبة إلى نفسه ، وليس أدل على ذلك من أنه صار من أتباع السيد ، كما كان من أتباع الشاذلى ، وأنه كان يميل إلى الشيوخ المعتقدين .

ومهما يكن من شىء فإن هذه الحركة التى قام بها ابن دقيق العيد قد أفادت السيد البدوى أجزل فائدة ، بل لقد كانت عاملا فى رواج دعوته فيما بعد . أولا : لأنها أمنته من ناحية القائمين بالأمر ، وكانت له كحكم البراءة أزال ما فى النفوس من ريبة نحوه ، ثانياً : ولأنها وضعت حداً لمنازعة الفقهاء له وإنكارهم عليه ، ثالثاً : ولأن الأتباع والمريدين قد استغلوها فى دعايتهم فجعلوها حجة من حججهم ، وعدوها كرامة لشيخهم ، ولقد فتن هؤلاء الأتباع والمريدون بما جرى بين السيد وابن دقيق العيد ، وتفننوا فى سرد تلك الواقعة بما شاء لهم الخيال ، حتى نقلوها فى رواياتهم ودعاياتهم من الوضع المعقول إلى أحاديث أسطورية وروايات خرافية مضحكة تدل على عقلية ساذجة منحطة ، ولكنها وجدت من جهالة العامة كل تصديق وقبول(١) .

(١) راجع الجوهر السنية ونور الأبصار للشبلنجى وطبقات الشعرانى ونحوها من كتب المناقب فانك ستجد من خرافاتهم فى ذلك مايضحك

صلة السيد بمكة :

وهنا يسأل القارىء .. ما الذى انتهى إليه أمر السيد فى صلته بالعلويين ؟ .. وما الذى كان من خبر اتصاله بقومه وعشيرته فى مكة؟!

ويبدو لنا فى الجواب عن هذا السؤال أن السيد كان يوافى مكة بأخباره ويتلقى أخبار القوم هناك بواسطة الحجاج المصريين الذين يسافرون للحج ولأداء الزيارة كل عام، وتشير الروايات الواردة إلى أن شقيقه الحسن كان يتلقى هؤلاء الحجاج ليقف على ما عندهم من شأن السيد ، وهناك رواية تقول إن الحسن قد حضر إلى مصر على رأس وفد من العلويين لزيارة شقيقه السيد فى أيام السلطان الظاهر بيبرس ، فتلقاهم السلطان بالإكرام ، وبالغ فى الحفاوة بهم ، وبعد أن قاموا بزيارة السيد فى طنطا عادوا إلى القاهرة فاستأذنوا السلطان فى السفر ، فأذن لهم بعد أن منحهم الهبات الجزيلة، والعطايا الكبيرة . ولما عادوا إلى مكة عقدوا محفلا عظيما من بنى قومهم إبتهاجاً بما علموا من أمر السيد ، وما أدرك من النفوذ فى الديار المصرية(١) ..

هذه كلها روايات تحكيها كتب المناقب ، ولكننا لم نجد مؤرخاً محققاً يمكن أن نعتمد عليه فى تحقيقها ؛ فنحن نرويها على علاتها .

(١) الجواهر السنية .

وفاة السيد :

وعلى أية حال فقد استتب الأمر للسيد فى دعوته كما رأيت ، وأصبح الرجل بشخصيته وبدعوته عقيدة تملأ وجدان العامة ، وتخالط نفوس الفقهاء ، وتخضد من شوكة الحكام . وتشير بعض الروايات إلى أن السلطان الظاهر بيبرس كان يزوره ويقلسه ويتبرك به ، وليس هذا ببعيد ولا بمستغرب ، وبخاصة إذا راعينا الروح التى كانت تسيطر على اتجاهات الحكام وميول العامة فى ذلك الوقت ، وإلى هذا تشير دائرة المعارف الإسلامية إذ تقول :

« ويظهر أن السيد قد أحس فى أخريات حياته أنه قد ملك على المصريين زمامهم ، وهذا ما يفهم من قول الشعرانى فى طبقاته رواية عن السيد : سواقى تدور على البحر لو نفد ماء سواقى الدنيا كلها لما نفد ماء سواقى » .

والشعرانى لم يعاصر السيد حتى يروى عنه ، ولكنها على أية حال كلمة تصور لنا الحال التى بلغها السيد فى اعتقاد أصحابه . .

وأخيراً انتقل السيد إلى جوار ربه بعد تلك الحياة الحافلة فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ٦٧٥ للهجرة وهو فى نحو الثمانين من عمره ، وقد قلت لك من قبل إنه وفد على مصر عام ٦٣٥ للهجرة فكأنه أمضى فى مصر أربعين عاماً ينهض بأعباء الدعوة ، وإنها لمدة طويلة هيأت للرجل أن يبث دعوته فى صبر ، وأناة وبراعة .

ولعل القارئ يلاحظ هنا أن تاريخ وفاة السيد يوافق وفاة النبى صلوات الله عليه ، وهى موافقة تدعو إلى التروى والتأمل ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية فى هذا الصدد : « ومن الطبيعى أن نتساءل عما إذا كان تاريخ وفاة أحمد البدوى هذا ليس إلا مجرد زعم »(١)

وعلى أى حال فهذا هو التاريخ الذى تواردت به روايات المتصوفة وروايات المؤرخين أيضاً . وإننا لنرجح أن تكون هذه الموافقة قد جاءت من تحديد المريدين وصنعهم .

(١) مادة أحمد البدوى

الفصل الثالث

تعليقات وتفسيرات

تلك هى حياة السيد أحمد البدوى قصصناها عليك فى الفصل السابق خالية من خرافات الملفقين ، وترهات الحشويين ، وها أنت ذا قد رأيت أن السيد لم يكن دجالا ولا مخرفاً ولا حاوياً ولا مشعوذاً ، ولا شخصاً خرافياً كآلهة اليونان يحمل البيت على ظهره ، ويمد يده فيأتى بالأسرى من وراء البحار كما صوره الدراويش ، وجعلوا من سيرته قصة حافلة بالأساطير تملقاً لعواطف العامة ، واستجابة لميول الجماهير ، وباباً للإرتزاق وملء البطون ، ولكنه كان رجلا له غرض كبير يهدف إلى إصابته فى حذق ومهارة لا تتوافر إلا للشخصيات المجاهدة المغامرة .

ولقد قلت لك فى الفصل السابق : إن للصوفية — ومنهم السيد البدوى — إشارات مبهمة ، ومظاهر غامضة فى سلوكهم ، وفى التعبير عن مقاصدهم وأغراضهم . وأن المريدين والأتباع لفقوا على السيد كثيراً من الوقائع التى لا يحتملها العقل ، لهذا أرانى مضطراً بحكم الوفاء للبحث أن أقف بالقارىء فى هذا الفصل عند بعض النواحى من حياة السيد لاستجلاء خوافيها . وتفسير ما تنطوى عليه

من البواعث والاتجاهات ، إذ أنها النواحى التى استغلها الأتباع والمريدون للتلفيق فى حياة السيد على أوسع نطاق ، حتى جعلوها أشبه ماتكون بالأساطير الخرافية التى يحكيها العامة عن الجن ، والغيبيات التى تخيلوها عن العالم الآخر .

أثر الرؤيا فى مقاصد السيد :

فمن ذلك ما تحدثوا به كثيراً من أن السيد كان فى جميع تصرفاته وتنقلاته خاضعاً لما يوافيه به الهاتف فى المنام ، فهم يزعمون أنه لم يرحل من مكة إلى العراق ، ولم يعد من العراق إلى مكة ، ثم لم ينتقل أخيراً إلى مصر ، ولم يؤثر طنطا بالإقامة إلا استجابة لصوت الهاتف فى المنام . يامره بالسفر والانتقال فكان لا يسعه إلا أن يعد ركبه ويشد رحله ، بل إنهم يزعمون أنه كان يخاطب الأولياء السابقين والصوفية المتقدمين ، ويتصل بأهله فى مكة ، ويرى النبى صلوات الله عليه ، ويصعد إلى السماء ويشاهد ما يقدر وراء الغيب للخلائق ويطلع على مشاهد الجنة والنار ، وكل هذا عن طريق الرؤيا فى المنام

ومثل هذا الهاتف المنامى لا يمكن للباحث أن يضعه تحت حكم قاطع جازم بالصدق أو الكذب ، فإن علم النفس لا ينكره ، بل إنه يبرره ما دام العقل مشغولا به متلهفاً عليه ، وما يفكر الإنسان فيه يقظة يحلم به مناماً ، وزيادة على ذلك فإن وقائع الرؤيا لا تخضع لضوابط العقل وتقديراته ، فقد يرى الرائى أنه صعد إلى السماء أو ساخ فى باطن الأرض ، أو أنه شاهد نفسه فى قصر شاهق بنيانه من ذهب على حين يكون نائماً فى غرفة لا تتجاوز مترين ، تحقق

فيها الأرواح وتضربها الرياح ، وأنت لا تستطيع أن تكذبه لأن هذه لا يصدقه العقل، فمرجع الصدق والكذب في هذا إلى الشخص نفسه، وقد يكون السيد رأى هذه الرؤى أو رأى بعضها ، أو لم ير شيئاً منها قط ، وقد يكون هذا كله من تلفيقات الدراويش والأتباع ، ومع هذا فليس لنا في تصديقه أو تكذيبه حيلة كما أوضحت لك .

ولكن الذي يعنينا توضيحه هنا هو السيد أن لم يكن الصوفي الوحيد الذي اصطبغت حياته بهذه الصبغة وإنما هي صبغة عامة يشارك فيها غيره من المتصوفة، وإن كانت حظوظهم في هذا تتفاوت بتفاوت مراميهم وأقدارهم، ولقد لعبت الرؤيا دوراً كبيراً في حياة الصوفية وفي تفكيرهم ، حتى كأنها كانت قوام حركاتهم ومصدر سكناتهم ، ولهم في ذلك فلسفة تدور على طبيعة النفس البشرية من اللطافة والكثافة ، وما يمكن أن يتم لها بالمجاهدة والصفاء والتجرد من المدارك الحسية الأولية ، والاتجاه نحو الصفاء الروحاني والتحليق في فضاء المشاهدات الباطنية، وفي هذا المجال تجد النفس مقاماً من الإدراك يقوم فوق مدارك البشر .. يقول ابن خلدون : « وهذا المقام يتوافر للأنبياء ويتهيأ للأولياء .. وعلى هذا اعتبر الباحثون الرؤيا الصادقة ضرباً من الوحي ، وصرح الغزالي في الأحياء بان الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة ، وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذي يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحي النبوي ، قوياً بالقياس إلى وحي الرؤيا ... »(١) .

(١) التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام للدكتور توفيق الطويل ص ٧ وما بعدها

وما أريد أن أفيض معك في شرح هذه الناحية ، وأن أتقصى في ذلك ما قاله الصوفية وغير الصوفية ، فإن الكلام في ذلك يطول بحيث لا يحتمله المقام ، وإنما أردت أن أوضح لك ظاهرة في حياة السيد لعلها تسترعي نظرك وتستوقف فكرك ، حتى لا تنظر إلى ما يرويه رواة المناقب عن رؤى السيد على أنه شيء عجيب غريب، إن صح ما يزعمه رواة المناقب في ذلك .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن استغلال الرؤى المنامية قد ظهر في دعوة العلويين قبل أن يظهر في دعوة الصوفية ، وأني لأرجح أن يكون المتصوفة قد أخذوا هذا ضمن ما أخذوا من اتجاهات الشيعة وأساليبهم في بث دعوتهم وجمع الأنصار من حولهم ، ويمكننا أن نتبين هذا فيما كتبه اليعقوبي عن مقتل زيد بن علي في خلافة هشام بن عبد الملك إذ يقول : « ولما قتل زيد تحركت الشيعة بخراسان ... وظهر الدعاة ورؤيت المنامات ، وتدورست كتب الملاحم(١) » .. ولقد كان العلويون يعتمدون على الرؤى المنامية على أنها ضرب من ضروب التنبؤ والإعلام بالغيب ، وهكذا صار يعتبرها المتصوفة ، ويتوسعون في استغلالها إلى مدى بعيد ، وقد كان لهذا الاتجاه أثر كبير في عقلية العامة حتى أننا لنرى كثيراً من الناس في الريف المصري لا يقدمون على عمل إلا بعد أن ينتظروا فيه أمر الرؤيا من رجل مشهور بالصلاح ، حتى كان هناك من يحترفون رؤية المنامات ، ويتخذون ذلك وسيلة للعيش وقضاء الحاجات

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٢ .

صاحب اللثامين :

وثمة مظهر آخر فى حياة السيد يسترعى النظر ويدعو إلى التأمل.

ذلك أنه اتخذ اللثام شعاراً لنفسه ولزم ذلك حتى عرف بصاحب اللثامين ، والواقع أن السيد لم يكن بالمبتدع لتلك البدعة ، وإنما هى عادة كانت شائعة بين أعراب البادية . وكان العرب يتخذون اللثام عند مخاطر الأمور ، وفى الإغارة والحروب ، وقد شاعت هذه الظاهرة بين القبائل البدوية فى شمال أفريقية، ولقد أقام الملثمون لهم فى تلك البلاد دولة أو شبه دولة . وكانت لهم ثورات وغارات دامية حاولوا إدراك أغراضهم فيها بالسيف وبالعنف .

ولعل أول من اصطنع اللثام من أصحاب الدعوات رجل مهووس يلقب بالمقنع الخراسانى ، إسمه هاشم بن حكيم ،وأصله من أهل مرو ، وكان قصاراً ، وكان دميما شنيع الخلقة ، وقد ادعى هذا المهووس أن الله — تنزه عن ذلك — حلت صورته أولا فى صورة آدم ، ثم انتقلت صورته من نبى إلى نبى ، ثم انتقلت إلى على ، فأبى مسلم الخراسانى . ثم انتهت إلى ذلك المدعى المهووس ، ومن العجيب أن دعوة هذا المدعى قد راجت بين القبائل التى كانت تقطن شمال فارس ، ولما اشتد خطره جردت عليه الخلافة الإسلامية جيشاً حاصره هو وأتباعه فى قلعة منيعة احتمى بها ، فلما تيقن الموت أحرق نفسه وجماعة من أتباعه بالقلعة . ولم يقف أحد على أثره أو حطامه ، فازداد أصحابه فيه فتنة . وزعموا أنه رفع إلى السماء .

وأول من اتخذ اللثام من الصوفية منصور البطائحى المعروف بالباز الأشهب خال السيد أحمد الرفاعى صاحب الطريقة المعروفة باسمه ، وكذلك اتخذه أتباعه البطائحية المكية ، ومعنى هذا أن الباز إتخذ اللثام شعاراً لطريقته لا شعاراً لنفسه فحسب.

وكذلك اشتهر باللثام فى مصر صوفى آخر هو السيد أبو العباس أحمد ابن محمد الملثم . كان معاصراً للسيد أحمد البدوى فى مصر ، وكان يقيم فى الصعيد الأعلى ، وأخذ الطريق عن أحد الصوفية بالمغرب ، وتوفى بقوص قبل وفاة السيد بثلاثة أعوام ، والظاهر أن هذا الصوفى قد اتخذ اللثام تقليداً عن صوفية المغرب .

ولو أن السيد البدوى اتخذ لنفسه لثاماً واحداً لقلنا شأن جرى فيه على مألوف العادة عند بدو أفريقية : وهم أهل موطنه الذى ولد فيه . ولكنه وضع على وجهه لثامين . وهو ازدواج لم يأخذ به غيره من الصوفية وغير الصوفية فيما نعرف ، فهل معنى هذا أن السيد كان يقصد بذلك إلى غرض بعيد مستور هو الغرض الذى كان يرجوه من وراء دعوته ، وأنه كان يهدف إلى أمر محفوف بالمخاطر ، ولابد أن يلعب السيف فيه دوراً ولكن بعد أن تتهيأ له الفرصة ويبلغ آخر الشوط فى الاستعداد له ؟ .. ثم شاءت الظروف القاسية أن لا تتهيأ تلك الفرصة بعد .. وألا يبلغ السيد من غرضه الحقيقى أى شوط .

هذا رأى نورده للبحث ، وإن كنا لا نؤكده . لأن الحقيقة

فى هذا ظلت مستورة فى نفس السيد لم تكشف الأيام ولا الأحوال منها شيئاً . وكل ما تدل عليه إشارات الأتباع والمريدين أن السيد كان يتلثم ليستر ما أفاض الله عليه من النور وشدة الهيبة والنظرة ، فقد حدث الشعرانى فى طبقاته أن « سيدى عبد المجيد — وهو من أتباع السيد ومريديه الأوائل — اشتهى يوماً رؤية وجه سيده أحمد ، فقال : يا سيدى ، أريد أن أرى وجهك وأعرفه ، فقال : يا عبد المجيد .. كل نظرة برجل . فقال : يا سيدى .. أرنى وجهك ولو مت ، فكشف له اللثام الفوقانى فصعق ومات فى الحال » . وإن هذه القصة القصيرة لتدلنا على أن أتباع السيد قد فهموا الغرض من اتخاذ اللثام على وضع أسطورى كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، ولكنى والله لا أدرى على من تقع التبعة فى موت الشيخ عبد المجيد إن صحت تلك الأسطورة التى رواها الشعرانى ؟ .

البشت الصوف والعلم الأحمر :

وشيئان آخران اتخذهما السيد من شعائره كما اتخذ اللثامين : أولهما : البشت الصوف ، وثانيهما : العلم الأحمر .

أما البشت فهو خرقة التصوف على حد تعبيرهم ، وفى رأيهم أن هذه الخرقة هى زى الفقراء ، ويزعمون أن النبى صلوات الله عليه قد لبسها من الجنة ثم ألبسها الخلفاء من بعده ، ثم انتقلت إلى أنس بن مالك ، ثم إلى الحسن البصرى : ثم تنقلت بين مشايخ

الصوفية من شيخ إلى شيخ حتى ألبسها الشيخ عبد الجليل ابن الشيخ عبد الرحمن النيسابورى للسيد أحمد البدوى بواسطة شقيقه الأكبر الشيخ حسن ، وقد ورث الشيخ عبد العال أول خليفة للسيد هذه الخرقة ، أو هذا البشت ، وبقى من ذلك العهد شعاراً لخلفاء السيد يلبسونه فى الموالد والمواكب .

هذا ما تحدث به الدراويش والأتباع فى تاريخ تلك الخرقة ، وهذا ما أثبتوه لها من النسب المتسلسل حتى مدوا ذيلها إلى الجنة ، والذى نستطيع أن نعقله من كل ما زعموه وأوردوه عن السر فى إرتداء هذا البشت أن مشايخ الصوفية قد اتخذوه شعاراً للزهد وللفقر ، ومظهراً يتقربون به إلى الفقراء ، وإذن فهؤلاء الصوفية قد سبقوا ما شاع فى هذا العصر ، وحسبناه بدعة جديدة وتفكيراً طريفاً لتلك الجماعات التى اتخذت القمصان الملونة شعاراً لها ، على أن تكون فى لونها وفى شكلها مظهراً للباس السائد بين الطبقات العاملة المكدودة والأوساط الفقيرة . كالقمصان الزرقاء ، والخضراء ، والسوداء ، والحمراء ، ولكن الصوفية لم يعنهم اللون ، بل عناهم النوع والهيئة أكثر ، إذ كان البشت هو اللباس السائد بين الطبقات الفقيرة والسواد الأعظم من الأمة العربية .. ولا يزال هذا اللباس سائداً بين رجال الطرق الصوفية .

أقول هذا تعليلا لما كان من تفنن المتصوفة وإصرارهم على اتخاذ تلك المرقعات ، وتظاهرهم بذلك اللباس الرث الخشن ، وأنى لأوافق

جمهرة الباحثين على أن الزهاد الإسلاميين قد اصطنعوا لبس الثياب الخشنة فى الأصل مجاراة للرهبان المسيحيين . ولكن المتصوفة فى العصور الأخيرة استعاضوا عنها بتلك المرقعات الرسمية التى كانوا يعتبرونها أصلا من أصول تعاليمهم وطرائقهم ، وماكان لهم من قصد فى ذلك إلا التودد إلى عامة الناس والتقرب من الفقراء كما قدمنا بين يديك .

وأما إتخاذ الراية الحمراء فإن السيد لم يكن بمتبدع لذلك الشعار ، فقد اصطنع السيد أحمد الرفاعى ذلك من قبل ، فكان يتخذ علمين حتى عرف بصاحب العلمين(١) .

وهم يردون حمل تلك الراية إلى ما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه قدم لواء بنى سليم يوم فتح مكة على سائر الألوية ، وكان أحمر اللون ، ومن المعروف أن النبى قد اتخذ اللواء شعار جهاد وتضحية ، وأن إيثار اللون الأحمر يرجع إلى ما فى ذلك من الدلالة على معنى الفداء وبذل الروح لأنه لون الدم .

فهل كان السيد وأنداده من الصوفية الذين آثروا حمل اللواء وآثروا اللون الأحمر فى اختياره يقصدون إلى هذا المعنى ، أو على الأقل يرون ضرورة المحافظة على هذا الوضع الذى هو أمر ضرورى فى الوصول إلى القصد ؟؟ .

---

(١) الراية تكون مربعة الشكل والعلم مستطيلا ، وهما شعاران لغرض واحد

قد يكون هذا ، بل هو التعليل المعقول المفهوم ، وإن مما يروى عن الشيخ عبد العال الخليفة الأول للسيد أن السيد أحمد البدوى قال له : « اعلم يا عبد العال أنى اخترت هذه الراية الحمراء لنفسى فى حياتى وبعد مماتى ، وهى علامة لمن تمشى على طريقتنا من بعدى » وسواء أصحت هذه الرواية بنصها عن السيد أم لم تصح ، فإنها تدل على أن السيد قد اتخذ تلك الراية الحمراء لتكون شعاراً لنفسه ، ثم شعاراً لطريقته ، يحملها خليفته من بعده ؛ وهكذا آثر حملها خلفاؤه فى مواكبهم ..

قدم .. وحجر :

ويسألنى صديق عن ذلك الحجر الموجود فى ضريح السيد ، وفيه أثر قدم تزعم العامة أنها قدم النبى صلوات الله عليه عندما حضر فى إحدى المرات لزيارة السيد ، ويزعم فريق أنه أثر قدم السيد نفسه ، وقد كان ذلك بركة من بركاته ، وإن العامة ليقدسون هذا الحجر ويخشعون له ، ولهم فيه إعتقاد راسخ يتصل باعتقادهم فى السيد .

ويظهر أن دراويش السيد وأتباعه لم يتورعوا عن استغلال قصة هذا الحجر فى التأثير على العامة ، فقد تحدث الشيخ عبد الصمد عن هذا الحجر فيما تحدث عنه من كرامات السيد فقال : « ومن كراماته أن حجراً أسود مثبتاً فى ركن قبته تجاه وجه الداخل من الجهة اليمنى ؛

وفيه موضع غوص قدمين شاع بين الناس وذاع ، واستفاض وملأ البقاع والأسماع . أنه أثر قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل من زار السيد يتبرك بمحل القدمين ، فسعى جماعة عند بعض السلاطين فى إخراجه من محله ، ونقله للسلطان ليتبرك به ، فأرسل السلطان جماعة من الجند يأخذون الحجر ، فلما هموا بقلعه صار الحجر مما لا يقدر أحد أن يأخذه وهو على الهيئة التى كان عليها قبل ذلك ، فخافوا وتركوه فى محله إلى وقتنا هذا ، وهذه كرامة عجيبة (١) »

والواقع أن القصة كلها عجيبة من عجائب التلفيق والتخريف ، ولسنا ندرى من ذلك السلطان المعتوه الذى كان محتاجاً إلى البركة من ذلك الحجر ، والذى عجز واضع القصة عن أن يجد له اسما ، أو يلصقها بأى سلطان من السلاطين المعروفين ؟ ..

ولو أننا رجعنا إلى تقصى هذه المسألة فى التاريخ لوجدنا الحجر قد لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الديانات والمعتقدات ، فلليهود أحجار يقدسونها ، وللمسيحيين وللمسلمين كذلك ، فمثلا تحت قبة الصعود فى بيت المقدس يوجد حجر فيه أثر صادر قدم يمنى يزعم المسيحيون أنه أثر قدم المسيح عندما صعد إلى السماء ، وعلى ظهر صخرة بيت المقدس آثار أقدام يقول المسلمون أنها آثار أقدام النبى حينما سار عليها ليلة الإسراء ، وهناك كثير من الأحجار المتناثرة فى مواطن التبرك والأضرحة المعتقدة ، وعليها مثل هذه الآثار ، ولسنا فى حاجة إلى دحض تلك الترهات ، لأنها أهون وأتفه من أن تدحض ، ومن

---

(١) الجواهر السنية ص ٩٦.

الواضح أن الآثار التى تبدو فى تلك الأحجار إنما هى تجويفات طبيعية ظهرت على شكل مناسب لذلك الاعتقاد الذى يعتقده العامة فيها ويتوهمونه عنها (١) ، وقد تكون هذه الآثار آثار أقدام حقاً ، وذلك بأن تكون هذه الأحجار قد خرجت من باطن الأرض فى إندفاع بركانى ، فكانت لينة ، وربما أثرت فيها أقدام شخص عابر أو مرتاد لتلك المنطقة . وقد حدثنى صديق أنه رأى فى البلاد العربية المقدسة حجارة من تلك الأحجار التى عليها آثار أقدام ، وأنه تحقق عنها ما قلناه : وهى أنها أحجار بركانية مستها أقدام عابرة . فهذا الحجر الذى يوجد فى ضريح السيد لا يدل على شىء من بركة السيد كما يعتقد العامة ، ولكنه يدل على مهارة خلفاء السيد ودراويشه الذين عرفوا كيف يستخدمون كل شىء فى التأثير على عواطف العامة حتى الحجر .

على أن هذا الحجر الموجود فى قبة السيد البدوى ليس الوحيد من نوعه فى مصر : بل إنه أحد أحجار أربعة يقدسها العامة ويعتقدون فيها البركات ، ويزعمون أن من تبرك بها شفى من الأمراض .

أولها الحجر المعروف باسم « أثر النبى » : وهو حجر فيه أثر قدمين محفوظ فى حجرة صغيرة مطلة على النيل ، وملاصقة للحائط الغربى لمسجد أثر النبى . وعلى هذه الحجرة قبة ، وفى حائطها الجنوبى محراب ألصق بأحدهما هذا الحجر ، وقد سمى المسجد بمسجد أثر

النبى ، كما أطلق هذا الإسم على القرية الملاصقة له ، وعلى الشارع الموصل إليه من مصر القديمة ، وشاطىء النيل فى تلك المنطقة يعرف بساحل أثر النبى ، وكانت ترسو عليه السفن التى تحمل الغلال والفول من الصعيد ، ولهذا كان هذا الساحل سوقاً مشهورة للحبوب .

وثانيهما حجر البرنبل ، وهى قرية شرقى النيل ، وفى شرقيها وعند سفح الجبل مقام يقال إنه مقام « سيدى أويس القرنى » ، والصحيح أنه غير مدفون بمصر ، وفى شرقى هذا المقام حجر صلب فى الجبل به أثر قدم تزعم العامة أنه قدم النبى ويزوره كثير من السياح الأجانب .

أما الحجر الثالث فهو حجر قايتباى ، وهو حجر أسود به أثر قدمين موضوع بجوار القبر الذى أعده لنفسه السلطان الأشرف قايتباى المحمودى فى حجرة واسعة ذات قبة شاهقة ملاصقة لمسجده الذى بناه بالصحراء التى عرفت بقرافة المجاورين ، وقد جاء فى إحدى الروايات أن السلطان قايتباى اشترى هذا الحجر بعشرين ألف دينار ، وأوصى بجعله عند قبره .

وهناك رواية تفسر لنا الأصل فى هذه الأحجار ومصدرها ، فقد قيل إن رجلا إسمه شمس الدين ابن الزمن كان يشرف على أبنية السلطان قايتباى بمكة ، وأنه كان يحضر هذه الأحجار من الحجاز ويحفظها فى مدرسته التى أقامها ببولاق ، وأن السلطان قايتباى اختار

منها هذا الحجر الموجود عند قبره ، وعندى أن هذا هو مصدر هذه الأحجار الموجودة بمصر ، والمعروف عن السلطان قايتباى أنه كان مفتوناً بحب الصوفية والشيوخ المعتقدين ، وهو الذى شيد الأبنية حول ضريح السيد البدوى ، فلا يبعد أن يكون هو مصدر هذا الحجر الموجود فى ضريح السيد البدوى ، وكل الأحجار الموجودة فى الأضرحة والمساجد بمصر بعد أن اشتراها أو استولى عليها من ذلك الرجل شمس الدين ابن الزمن ، ومهما يكن من شىء فان الذى يهمنا أن نقرره هو أن هذه الأحجار ليس لها حقيقة تاريخية ، وأن الاعتقاد فيها فاسد وباطل ، وقد أثنى العلاقة بين نسيمية ، بأن من اختراع الجهال ، وأن مما يروى من حديث تأثير قدمه صلى الله عليه وسلم فى الصخر إذا وطىء عليه من الكذب المختلق ، وغاية ما يقال فى تقديس هذه الأحجار أنها وثنية مترسبة فى النفوس من ذلك العهد الذى كان الناس فيه يعبدون الحجر سار ويتخذون منه الأصنام .

لماذا لم يتزوج السيد ؟

وننتقل بك إلى ناحية خاصة فى سيرة السيد ، وهى عدم تزوجه مع أنه نيف على الثمانين عاماً ، وقد كان وافر القوة متين الجسم . ومن المعروف أن ابتعاد الرجل عن المرأة ليس بالأمر السهل الذى يمكن أن يتحقق بمجرد الرغبة . بل إنه أمر يحتاج إلى مجاهدة الطبيعية البشرية ، والذى يبدو لنا فى ذلك أن السيد أخذ نفسه بنظام من

الزهد الرهبانى اعتنقه بعض الصوفية فى الصدر الأول ، ثم شاع بين طوائفهم المختلفة ، وبخاصة بعد أن تأسست الربط والزوايا والخانقاوات . وقد أورد الصوفية فى الاحتجاج لهذا المذهب بعض الأحاديث المدخولة على النبى ؛ والتى تشير إلى إباحة العزوبة لجميع المسلمين بعد المائتين من الهجرة ، ومن ذلك ما ذكره أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » حيث قال : « وفى خبر إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتى ، ولأن يربى أحدكم جرو كلب خير من أن يربى ولدا » والخبر المشهور : « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » ، ويظهر أن مثل هذه الأحاديث كان لها أثرها فى الفصل فى هذه المسألة . فقد ظهر نظام الرهبنة بين طوائف المتصوفة ، وانصرف الشيوخ عن تربية الأولاد إلى تربية المريدين ، وكانوا يقولون : إن المريد يصبح جزءاً من الشيخ كما أن الولد جزء من أبيه . هذه ولادة طبيعية وتلك ولادة معنوية (١) .

إذن ، لقد أخذ السيد نفسه بهذا المذهب الرهبانى الذى ينافى طبيعة الإسلام ، ويقاوم الطبيعة البشرية على ما ركب الله فيها من الغرائز ، ويقول الذين تحدثوا عن حياة السيد من أهل الطبقات

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه للدكتور أبو العلا عفيفى ص ٥٢ وما بعدها

ورواة المناقب أن شقيقه حسن قد طلب إليه أن يتزوج ولكنه أبى وقد اتخذ من مريده عبد العال ولداً ، وهى الولادة المعنوية التى يقصدونها ، ويظهر أن طبيعة الحياة التى كان يحياها السيد هى التى لم تساعده على اتخاذ الزوجة والرغبة فى إنجاب الذرية ، لأنه عاش متنقلا فى الأقطار ، ثم جاء إلى مصر يتولى دعوة لا يعلم ما وراءها ، ومما يقوى هذا أن خلفاء السيد وأتباعه لم يأخذوا عنه هذا المذهب ، فقد تزوجوا وأنجبوا .

السيد وفاطمة بنت برى :

ولمناسبة الحديث عن حياة العزوبة التى أخذ السيد بها نفسه نعرض هنا لقصة اشتهرت عنه ، ونعنى بها تلك القصة التى أوردها الأتباع والمريدون عن اجتماع السيد بفاطمة بنت برى وهو فى رحلته بالعراق ، ويقولون : « إن فاطمة هذه كانت امرأة صاحبة حال ، وقد أعجبت بنفسها فى الفعال ، وبجمالها تسلب الرجال ، وتقتل الأبطال » ، فلما كان السيد فى تنقلاته بالعراق سمع صوت السيد أحمد الرفاعى فى المنام يهتف به أن يقصد إلى فاطمة بنت برى ويؤدبها على فعالها ، فنهض السيد من وقته لهذا الغرض ، حتى إذا ما دخل على فاطمة وجد عندها مائتى فتاة من جميلات الحى وجمعتهن لفتنة الوافدين عليها ، والذين يتعرضون لها ، ولكن السيد لم يظهر

اهتماماً بشأنهن ، ومضى قاصداً فاطمة نفسها ، فلما رأت صرامته وشدة بأسه ، حاولت أن تغريه بجمالها ، وبذلت له الوعد بزواجها فلم يلتفت لما قالت ، وادعى أنه أبكم أصم لا يسمع ولا يتكلم ، فتوجست منه شراً ، واستعانت عليه بفرسانها ونقبائها ولكنه أظهر من الكرامات الخارقة ما هزم به أولئك الفرسان والنقباء ، حتى أنه أمات الجمال وأحياها ، وسمّر فرسها بالأرض ، فاستغاثت وعادت مرة ثانية تغريه بجمالها وتلح عليه أن يتزوجها ، ولكنه أصر على إبائه ، وانصرف عنها بعد أن أذعنت له ، وشهدت بقطبانيته ، وأخذ عليها العهد ألا تتعرض لأحد بسوء من الرجال والأبطال .

هذا ملخص وجيز لتلك القصة التى يحكيها المريدون والأتباع فيما كان بين السيد وفاطمة بنت برى ، وقد استهوت هذه القصة العامة فلاقت عندهم قبولا كبيراً حمل أولئك الأتباع على التزيد فيها ، والتوسع فى روايتها ، وإقحام الأشعار السخيفة عليها ، حتى صارت بضاعة الشحاذين يتغنون بها فى الموالد وفى القرى فى تواقيع منسجمة على نقرات الدف ، ولا نزال إلى اليوم نرى أولئك الشحاذين يترنمون بتلك القصة على أبواب المنازل بالقرى طلباً للرغيف .

وقد ألمح الباحث الذى كتب تاريخ السيد البدوى فى دائرة المعارف الإسلامية إلى هذه القصة ، ثم قال : « وأنا أميل إلى الإعتقاد بأن النضال الذى ذكرناه بين أحمد البدوى وفاطمة بنت برى — والذى لم يفسر بعد — أعمق من أن يكون مقصوراً على

ترويض إمرأة بدوية جامحة » ، ولكن هذا الباحث لم يحاول أن يقدم تفسيراً مفهوماً لتلك القصة الغريبة ، ويعتقد « جولدسيهر » أن حياة السيد قد خالطها عناصر مصرية قديمة ، وهو بهذا الرأى يحاول أن يرد تلك القصص التى تشيع فى حياة السيد إلى أساطير مصرية فرعونية أقحمها الوضاعون على حياة ذلك الصوفى لغرض فى نفوسهم وإلى هذا الرأى يميل جميع المستشرقين الذين عرضوا لحياة السيد بالبحث ، ولكنهم فى جملتهم يسوقون هذا الرأى على سبيل التقدير الجزافى ، فلم يحاول أحد منهم أن يعين بعض الشواهد من القصص المصرى القديم ليؤيد بها هذا الرأى .

ونحن وإن كنا نعتقد أن قصة السيد مع فاطمة بنت برى قد دخلها كثير من التحريف والتلفيق ، إلا أن ملابساتها توحى بأنها ترجع إلى أصل صحيح ، وأن هذا الأصل يتصل بحياة السيد الصوفية إذ من المعروف أن السيد لم يتزوج كما قلنا ، فإذا علمنا أن هذه القصة قد وقعت للسيد وهو فى العراق يدرس ويهيىء نفسه لحياة التصوف ، وأن الشيخ أحمد الرفاعى هو الذى هتف به فى المنام لمواجهة تلك المرأة التى أخذت بألباب الرجال والأبطال من قبله ، فهل لنا أن نفسر تلك القصة فى أصلها بأنها كانت إمتحاناً وضع للسيد لمعرفة مدى صبره عن المرأة وتغلبه على تلك القوة القاهرة وهو لما يزل فى مقام الاستعداد لحياة التصوف الكاملة ، ومن المعروف أن الشيوخ كانوا يتخذون فى تربية المريدين أساليب الإمتحان لقدرتهم ، والاختبار لصبرهم على حياة التجرد والنهوض بما يحملون من التعاليم والدعوات .

يمكن أن يكون هذا ، ويمكن أن تكون فاطمة بنت برى هذه إمرأة كان لها شأن مع السيد فى مطلع حياته ، ثم انتقلت قصتها معه فى روايات الوضاعين إلى ذلك الوضع الذى شاعت به بين الناس ، وقد كان جدى رحمه الله يرجح أن تكون هذه القصة موضوعة من أصلها ، وأن القصد فيها هو الرمز إلى ما كان فى حياة السيد من مجاهدة الشهوات والاعتصام من المزالق التى انزلق فيها غيره ، وأنه كان من البطولة بحيث لا يؤثر عليه جمال ولا يقهره رجال(١) .

قصة خضرة الشريفة :

وهناك قصة أخرى منظومة ذائعة بين العامة فى القرى ، وكثيراً ما يتغنى بها المغنون والشحاذون ، وتحكى هذه القصة واقعة طويلة جرت بين السيد البدوى وامرأة تسمى خضرة الشريفة ، وهى تتلخص فى أن تلك المرأة كانت ذات حسب ونسب وجمال ، وأنها وقعت أسيرة لدى الإفرنج ، فنهض السيد وخلصها ببركاته وكراماته وأبدى فى ذلك الوقائع التى تدهش العقول وتحير الألباب ، على أننا لم نجد أحداً من أصحاب الطبقات ورواة المناقب قد أشار إلى هذه

(١) كان جدى رضوان الله عليه من النخبة الممتازة التى تثقفت وتهذبت على علم الأستاذ المصلح الامام الشيخ محمد ، وكان على رأى أستاذه يعتبر أن التصوف الصحيح مرتبة عليا من مراتب الكمال الانسانى ولكنه كان ينكر المظاهر السائده فى تنظيم الشيوخ ويراها من المراسيم والطقوس المسيحية واليهودية التى تسربت إلى الحياة الأسلامية فى فترات الانحلال العقلى .

القصة بشىء ، والظاهر أنها وضعت فى عصر متأخر كما يدل على ذلك نظمها التافه ولغتها العامية ، ويظهر أن واضعها قد استعان على ذلك بقصة فاطمة بنت برى السالفة الذكر ، فإن القصتين متشابهتان فى كثير من الوقائع ، ويظهر أنه اختار اسم خضرة الشريفة لبطلة القصة ليكون له وقعه فى القلوب ، وإنه لاختيار مناسب حقاً ، ومما يذكر أن خضرة الشريفة قد ذكرت فى قصة أبى زيد الهلالى على أنها والدة أبى زيد ، وكان عرب بنى هلال يصفون أنفسهم بالإشراف بعد أن دخلوا شمال أفريقيا والمغرب ، ومن هنا نعرف كيف تمازجت القصص الشعبية وتداخل بعضها فى بعض ، وعندنا أن هذه القصة الموضوعة إن دلت على شىء فإنها تدل على أن سيرة السيد والحديث عن كراماته قد صار باباً مفتوحاً للوضاعين والمختلفين ، حتى من العامة وأشباههم .

المعجزة الكبرى للسيد :

ولا يهولنك هذا التعبير ، فإن رواة المناقب وأصحاب الطبقات قد ادعوا لشيوخ المتصوفة كثيراً من المعجزات الخارقة ، بل ومافوق المعجزات مما تتعلق به قدرة الخالق .. حتى أنهم قلدوهم التصرف فى شئون الكون وحكم العباد والبلاد ، ونسبوا إليهم إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص . والمشى على الماء : والصعود فى الهواء ، وإخضاع الوحوش ، وأكل النار والثعابين ، وجعلوهم فى هذا مراتب وطبقات(١) . ولما كان السيد أحد الأقطاب الأربعة المتصرفين

(١) قلائد الجواهر فى مناقب الجيلانى ص ٣٧ .

فى الكون والمتحكمين فى العباد ، كان لابد أن يخترعوا له الكرامات والنفحات ، وأن ينسبوا إليه من الخوارق والمعجزات ما يؤيد قطبانيته ويشهد بقدرته ، فزعموا أنه كان يمد يده وهو فى طنطا فيأتى بأسرى المسلمين من بلاد الإفرنج ويلقى بهم فوق مسجده ؛ قال السيوطى فى حسن المحاضرة ، « وتؤثر عنه كرامات وخوارق من أشهرها قصة المرأة التى أسر الإفرنج ولدها فلاذت بالسيد فأحضره إليها فى قيوده .. » وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ عبد الصمد فى الجواهر السنية ، والشبلنجى فى نور الأبصار ، وجميع الدراويش الذين تحدثوا عن مناقب السيد .

على أن الشعرانى فى طبقاته لا يكتفى بهذا القدر من التخريف فى إثبات هذه المعجزة للسيد ، بل إنه يدخل فى المسألة شاهد رؤية فيقول : « وأخبار السيد ومجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج وإغاثة الناس من قطاع الطريق وحيلولته بينهم وبين من استنجد به لاتحويها الدفاتر رضى الله عنه .. وقد شاهدت أنا بعينى سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه متقيداً مغلولا وهو مخبط العقل ، فسألته عن ذلك فقال : بينما أنا فى بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدى أحمد ، فإذا أنا به ؛ فأخذنى وطار بى فى الهواء .. ثم وضعنى هنا . فمكث يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة رضى الله عنه .. » ، ويظهر أن الشعرانى هو الذى

كان مخبط العقل — كما يقول — وأن هذه الحكاية التى يرويها ويزعم أنه شاهدها بنفسه لأوضح ما تكون فى باب الهذيان والتخريف .

ولعل العامة لم يفتتنوا بشىء مما حكى عن السيد مثل ما فتنوا بخرافة مجيئه بالأسرى من بلاد الفرنج ؛ ومن المعروف أن العامة تفتن بكل ما هو غريب وعجيب ، وتؤخذ بالمدهشات والخوارق ، ثم هى لا تفكر فى صحتها أو عدم صحتها ، بل إنها تنفر من هذا التفكير وتبغضه : وكأن الدراويش قد أغراهم ما رأوا من سلطان هذه الخرافة على العامة وأشباه العامة فأخذوا يترسمون فيها ، وصنعوا منها أنشودة يترنمون بها فى الموالد والمواكب العامة ، حتى «الأدباتية» قد استغلوا هذه الخرافة فى كسب الرزق ، وليس فينا من يجهل أنشودتهم الذائعة « يالله ياسيد جاب اليسرى » .

والاعتقاد الشائع بين العامة أن السيد ظل ينقذ الأسرى بعد مماته إلى عصر متأخر ، وأنه لم يكف عن ذلك إلا بطلب من المرحوم محمد سعد الدين باشا الذى كان مديراً للغربية(١) ، ويبدو لى أن مسألة الأسرى هذه ترجع إلى واقعة تاريخية مشهورة ، ذلك أن وزارة الأوقاف قد أرسلت بالسيوف والدروع التى غنمها الجيش المصرى من جيش لويس التاسع الذى أسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة لتخزن فى مخزن المسجد الأحمدى ، فكان دراويش السيد وأتباعه يتقلدون هذه الدروع والسيوف فى مواكب الموالد

(١) لبحث الذى كتبه الشيخ مصطفى عبدالرازق .

الأحمدية ، ويزعمون للناس أنهم الأسرى الذين جاء بهم السيد من بلاد أوربا ، فلما تقدمت الأيام انتقلوا بهذا الزعم نقلة ثانية فقالوا أنهم سلائل أولئك الأسرى ، والعجيب فى هذا كله أن تترك الحكومة المصرية هذه الدروع والسيوف التاريخية نهباً للضياع فى أيدى أولئك المعتوهين .

بقيت مسألة لابد من الإشارة إليها فى هذا المقام ، فقد ذكر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود فى كتاباته عن شيوخ الصوفية أن السيد أحمد البدوى خرج بنفسه لمحاربة الصليبيين ، وأنه كان مع شيوخ الصوفية يحث على القتال والجهاد فى واقعة المنصورة التى أسر المسلمون فيها الملك الفرنسى « لويس » وحبسوه فى دار ابن لقمان ، وفى مرة عرض « تليفزيون » القاهرة برنامجاً عن السيد البدوى وهو يحارب الصليبيين وينقذ الأسرى منهم ، وهذا فى الواقع قول لم يثبت تاريخاً ، وليست هناك رواية تاريخية تؤيده ، حتى أن أتباع السيد الذين تحدثوا عن مناقبه لم يشيروا إلى هذا ، وكل الذى ذكروه أن السيد كان ينقذ الأسرى بعد مماته ، وأن إنقاذ الأسرى بهذه الصورة كان كرامة من كراماته ، وليس عملا من أعمال الجهاد ...

كلمة أخيرة عن مقاصد السيد :

بقيت مسألة أخيرة تتعلق بسؤال لابد أنه يجول بخاطرك ، فستقول : وماذا بدا من مقاصد السيد فى السياسة وما رأيناه قد

كشفت من ذلك شيئاً ، ولا حاول فيه غرضاً ، مع أنه قضى فى مصر أربعين عاماً يجمع الأنصار والأتباع من حوله ، ثم إننا لم نلمس أى أثر لشىء من هذا عند خلفائه وأتباعه الذين أتوا من بعده ، والذين ملأوا فجاج الأرض بدعوته ؟؟ ..

فهذا اعتراض وارد ، والجواب مسلم كما يقول علماء الجدل ، والواقع أن السيد لم يكن يطلب ملكاً لنفسه ، أو يهدف إلى غاية تتصل بشخصه ، وإنما كانت غايته أن يجمع عصبية فى الديار المصرية للعلويين كتلك العصبيات التى كان يجمعها غيره من الصوفية فى أقطار العالم الإسلامى حتى تكون عوناً لهم إذا ما تهيأت الفرصة ونهضوا لطلب الملك ، ولكن أحداث الزمان جاءت قاسية عنيفة فسحقت كل غرض ، ومحقت كل قصد . إذ تتابعت الحملات الصليبية على مصر والشام ، ووقعت الواقعة بين الشرق والغرب إلى حد طار بالنفوس شعاعاً ، وملأ القلوب بالفزع والجزع ، فلم تعد هناك عصبيات للجماعات ، ولم تعد الأحوال ملائمة للقيام بثورات داخلية فى طلب الملك والسيادة ، وإنما كانت هناك عصبية عامة يتواجه فى ميدانها الشرق والغرب ، ويقوم على أساسها الصراع بين الهلال والصليب ، فأين كانت تكون من هذا كله دعوة السيد أحمد البدوى ، وأين كانت تكون أغراض العلويين وغير العلويين؟

لم تسعف الأيام ولم تساعد تصاريف الزمن على أن يستغل العلويون ما بث لهم الصوفية من دعوات ودعايات ، ولكن بقيت

القلوب تفيض بالهوى نحو أولئك العلويين ، والألسن تتحدث بمناقب آل البيت وكراماتهم ، حتى أصبح الصوفية أنفسهم لا يكرمون ولا يقدرون إلا على أساس ما لهم من نسب شريف وحسب علوى ، وكان أن شاعت الأزياء التى تميز أولئك الأشراف وشاعت أيضاً فكرة النسب والانتساب ، وكثر فى ذلك الأدعياء من الخلطاء والدخلاء ...

وقصارى القول أن السيد كان يهدف إلى غرض ، ولكن تطورات الحوادث حجبت ذلك الغرض ، وسدت مسالك الطرق إليه ، فكان أن اتجهت دعوة السيد إلى ذلك الغرض التى ظهر فيما بعد ووضحت آثاره فى تلك الدعوة الصوفية التى ملأت طول البلاد وعرضها ، وكثرت حشودها وأتباعها ، وكان لها ما كان من صبغة لا تزال ألوانها وآثارها بادية كأقوى ما تكون فى المجتمع المصرى ، وهكذا أراد السيد شيئاً ولكن الأقدار أرادت شيئاً آخر ، وكان للأحداث والظروف الحكم فى الاتجاه بدعوته ذلك الاتجاه الذى ظهرت فيه ، فبقى من غرضه ما كان ظاهراً ، واختفى ما كان مستوراً ، وما خسر السيد فى هذه الصفقة ، بل لقد ربح ربحاً طائلا من بسطة النفوذ ، وكثرة الأتباع ، وحسب السيد أنه وهو وراء قبره ملتقى رغبات الشعب ، وقبلة الآلاف من العامة والخاصة ، يتمسحون بأعتابه ، ويتعلقون بأستاره ، وأن المراسيم فى موالده وفى مواكبه تجرى على وضع رسمى كأنها جزء من مراسيم الدولة :

الفصل الرابع

شخصية السيد

الشخصية والنجاح :

الشخصية القوية هى الدعامة الأولى والأداة التى لابد منها فى بلوغ الغاية وإدراك النجاح عند أولئك الذين يتصدرون لحمل الدعوات وقيادة الجماهير وجمع الأتباع والأنصار من حولهم ، وإذا كنا فى عصرنا الحاضر نرى كثيراً من الأسباب المهيأة التى تسعف الزعماء والمتصدرين ، وتساعدهم فيما يقصدون إليه من شدة التأثير بأرائهم وبسط النفوذ على من حولهم ، أقول : إننا إذا كنا نرى كثيراً من الأسباب التى تساعد طلاب الزعامة والقيادة فى أغراضهم مثل الإذاعة والخيالة والدعاية الصحفية وغيرها من الوسائل الآلية التى تضاعف فى قوة الشخصية وشدة نفوذها ، أو على الأقل تحجب نقائصها وتستر مواطن الضعف فيها ، فان السابقين من هؤلاء كانوا لا يجدون معيناً فى هذا إلا « قوة الشخصية » وحدها ، إذ كانوا يقفون من الجماهير وجهاً لوجه ، وينزلون إلى غمارهم ، ويتحدثون إليهم ، ويحاولون أن يمسكوا بزمام عواطفهم وعقولهم ، ومن ثم كانت مهمتهم أشق وأصعب من مهمة أمثالهم فى العصر الحاضر .

فالشخصية القوية هى الأساس الأول فى إدراك النجاح ، وهى قبل العلم والمواهب ، وهى وحدها القوة التى تقف بصاحبها فى مقاومة الحوادث ومواجهة الظروف ،وتملأ نفسه بالثقة والأمل ، وتسلس له القياد الصعب الشموس ، فكأنها السر الذى يفض كل مغلق ، أو السحر الذى يخلب النفوس ويذهل العقول ،ولقد كان « نابليون » على حق حين سمى أصحاب الشخصيات القوية بالرجال الذين خلقوا للنصر .. وكان الكاتب الأمريكى « أمرسون » أدق وأصدق إذ شبه السلطان الذى يكون لصاحب الشخصية القوية على ضعيفها بسلطان النوم إذا دب فى الأجفان فثنى الرءوس وأمال الأعناق .

لهذا قصدنا فى هذا الفصل إلى الكشف عن شخصية السيد وما اجتمع له من المقومات فى ذلك ، حتى نتبين حقيقته . ونتبين الحقيقة فى ذلك النفوذ الكبير الذى بلغه فى جمع الأتباع والمريدين ، وتلك السيطرة التى تمت له ، وامتدت من ورائه إلى اليوم كأقوى ما تكون . فأية شخصية كانت شخصية ذلك الرجل ؟ .

شخصية السيد :

لقد خلف لنا السابقون فى الحديث عن شخصية السيد جملة من الأوصاف الخلقية ومظاهر السلوك التى كان يأخذ بها نفسه ، فذكروا من أوصافه أنه كان « طويلا ، غليظ الساقين ، عبل

الذراعين .. أكحل العينين ، كبير الوجه ، عظيم الوجنتين ، لونه بين البياض والسمرة ، وكان فى وجهه ثلاث نقط من أثر الجدرى ، واحدة فى خده الأيمن واثنتان فى الأيسر ، أقنى الأنف ، وعلى أنفه شامتان . فى كل ناحية شامة أصغر من العدسة ،وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد أخيه حين كان بمكة فى صغره »(١) . وذكروا من شمائله أنه كان حاد الطبع قوى الشكيمة ، ولهذا عرف بالغضبان وبالعطاب ، ولما كبر كان يؤثر العزلة والانفراد وطول الصمت حتى عرف بالصامت ، وهذه الأوصاف التى أوردها السابقون لا تكفى فى إعطائنا صورة كاملة دقيقة عن شخصية السيد ، ولكنها على أية حال تعطينا صورة تقريبية ، أو قل أنها ترسم الخطوط الرئيسية لهيئة السيد وهى كما نرى هيئة تقع من النفوس موقع التقدير والتأثير ..

ويظهر من سيرة السيد أنه كان قوى السلطان على أتباعه ، شديد التأثير على من يلوذون به ، وأنه استطاع بقوة شخصيته أن ينهض بأعباء دعوته ويصلها بالنفوس وبالقلوب ، ويحكى الشيخ عبد العال أنه كان يؤتى بالشخص إلى السيد حيث هو معتكف على السطح فينظر إليه نظرة واحدة فيملأه مدداً ثم يقول : يا عبد العال إذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا .. (٢) فان صحت هذه الحكاية

(١) الجواهر السنية وطبقات الشعرانى وعلم الدين .

(٢) طبقات الشعرانى .

فإنها تدل على أن السيد كان نفاذ الشخصية قوى التأثير فى جمع الأنصار والأتباع وفهم استعدادهم وتقدير طاقتهم ..

شخصية السيد العلمية :

أما شخصية السيد من الناحية العلمية والثقافية العقلية فيظهر أنها كانت شخصية ضئيلة القدر كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، وليس بصحيح ما هو شائع بين أتباع السيد وكثير من شيوخ الأزهر من أن السيد قد ألف كتاباً فى الفقه على مذهب الشافعى ، فقد بحثت هذه المسألة فلم أقف فيها على شىء ، ولم يخلف السيد على العموم ثروة عقلية تدل على أنه كان صاحب شخصية علمية ، ولو أنه ترك شيئاً من ذلك لحمله إلينا أتباعه ، بل لزادوا فيه أشياء وهم الذين كانوا يتلمسون مظاهر التمجيد ليحملوها عليه وينسبوها إليه .

وكل ما وصلنا من الآثار العقلية والعلمية المنسوبة إليه هى :

١ — ورد يتضمن جملة من الأدعية وهو ما يسمى فى اصطلاح أهل الطرق بالحزب .

٢ — مجموعة من الصلوات وقد شرحها رجل من الصوفية يسمى الشيخ عبد الرحمن بن مصطفى عيدروس فى كتاب سماه « فتح الرحمن » .

٣ — جملة من الوصايا وجهها السيد إلى مريده وتلميذه عبد العال لتكون مناهجه فى الطريق ومنهاج الخلفاء والمريدين . وهى

وصايا عامة تتضمن الحث على التمسك بالكتاب والسنة وقيام الليل. إذ أن صلاة ركعة واحدة فى الليل تعدل ألف ركعة فى النهار . كما تتضمن الحث على الشفقة باليتيم وإكرام الغريب وإطعام الجائع وستر العريان، وعدم الإنكار على فقراء المسلمين جميعهم(١) .

وقد أورد الشيخ عبد الصمد فى « الجواهر السنية » جملة من الأسئلة وجهها عبد العال إلى أستاذه فأجابه عنها ، وهى أسئلة وأجوبة تدور حول آداب الطريق ومظاهره، ودلائل التوجه إلى الله عند الصوفية من الأخذ بالذكر، والوجد والصبر، والزهد والفقر والتوبة والابتعاد عن شهوات الدنيا ، وغير ذلك مما هو معروف ومألوف عند المتصوفة وأهل الزهد . والواقع أننا لا نرى فى هذه الآثار التى تعزى للسيد مظهراً من مظاهر الاستقلال الشخصى ، أو لوناً من الألوان العقلية يتميز به ، بل إنها عبارات عامة متلقفة مما شاع وملأ الأسماع بين أهل الزهد والتصوف ، حتى بين الطبقات الدنيا منهم ، على أننا لا يمكن أن نطمئن إلى أن هذه الآثار هى للسيد حقيقة ، بل إننا نرجح أن تكون من صنع أتباعه ، ومن صنع الشيخ عبد العال خاصة ، فإن أثر الوضع يظهر واضحاً فى لغتها النازلة، وفى مدلولاتها العامة المتداولة ، وإنى فى هذا لأوافق

(١) المراد بالفقراء هنا الصوفية .

المستشرق « فولوز » الذى كتب مادة « أحمد البدوى » فى دائرة المعارف الإسلامية إذ يقول : « ونحن نشك فى أن تكون هذه الآراء ثمرة من ثمار أحمد الروحية وفى إمكان اتفاقها وذوقه الصوفى .. » ، ولكنى لا أوافقه فيما ذهب إليه من أن السيد وأتباعه قد تأثروا بالإنجيل فيما ذهبوا إليه « من وجوب الرأفة بالأيتام وستر العريان وإطعام الجائع ، وقرى الغريب والضيف ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وعدم الفرح لمصائب الآخرين » . فإن هذه أمور قد رددت الأمر بها آيات القـرآن الكريم ، كما شاعت فى تعاليم الإسلام ، وذاعت الدعوة إليها فى البيئة الإسلامية ، ولم يكن السيد وأتباعه فى حاجة إلى الرجوع إلى الإنجيل ليأخذوا عنه هذه الأمور العامة الشائعة .

شخصية السيد الصوفية :

ويعتبر السيد من الناحية الصوفية عند أتباعه « أحد الأقطاب الأربعة : عبد القادر الجيلانى ، وأحمد الرفاعى ، وأحمد البدوى ، وإبراهيم الدسوقى » . وقد نعتوه « بسيد أهل الفتوة والمورد العذب من مناهل سر النبوة »(١) وذكروا من مظاهر سلوكه فى الطريق « أنه كان يرفع عينيه صوب الشمس حتى تحمر وتمرض وتصبح

(١) مشارق الأنوار للشيخ حسن العدوى .

أشبه بالجمرتين المتقدتين ، وكان تارة يطول صمته وتارة يعلو صراخه ، وكان يمتنع أحياناً عن الزاد والشراب ما يقرب من الأربعين يوماً ، وكان إذا لبس ثوباً أو عمامة لا يخلعها لغسل ولا لغيره حتى تبلى فيبدلونها له بغيرها(١) » ، وإن هذه المظاهر لتدل — كما تقول دائرة المعارف الإسلامية — على أن السيد كان من طبقة الدراويش الدنيا الذين هم أشبه بطائفة « اليوجا » فى الهند ، والواقع أن التصوف الإسلامى عامة فى عصر السيد كان قد اتجه ذلك الاتجاه ، وسيطرت عليه هذه النزعة ، فأصبح مجموعة مما يسميه الصوفية بالمجاهدات والشطحات ، والخلوة والذكر ، والتجرد من قيود الحس ، على أن السيد كما يبدو لم يكن بالشخصية الصوفية التى تعالج التصوف بالرأى والتفكير ، وإنما كان صاحب دعوة يجمع حولها الأنصار بذلك الاتجاه ، أعنى اتجاه الزهد والتقشف ، وهو اتجاه كان أشد تأثيراً على نفوس الجماهير من ذلك الاتجاه الفلسفى الذى سلكه رجل مثل ابن عربى ، وبخاصة عندما فترت الهمم وانحلت العزائم فى المجتمع الإسلامى ، ومن هذا نستطيع أن نقول إن السيد كان صوفياً للعامة ، أما ابن عربى مثلا فكان صوفياً للخاصة وأهل الفكر .

(١) طبقات الشعرانى

شخصية مصنوعة :

وهناك شخصية أخرى للسيد كانت أشد تأثيراً فى المجتمع المصرى ، وأقوى ما تكون رهبة ونفوذاً فى قيادة الجماهير والأخذ بزمام العامة ، وهى شخصية لم يكن السيد يملكها ، ولا نحسب أنه ادعاها لنفسه ، وإنما صنعها أتباعه ، ودراويشه من بعده ، وخلعوا عليها من صفات التعظيم ومن ألوان القداسة كل ما رأوا فيه تأثيراً على الجماعات الشعبية وأخذاً بنفوسهم ، ولم يتورعوا عن أن يخترقوا فى ذلك نطاق الدين ونطاق المعقول(١) ، حتى صوروا من ذلك الرجل شخصية رهيبة تقدر على كل شىء ، وتبطش بكل من لا يذعن لها ويطاطىء أمامها ، مهما يكن مقامه وقدره ، ثم هى أيضاً كريمة رحيمة تجير كل من يلتجىء إليها ويلوذ بها ويعتقد فيها ، وقد نجح أولئك الدراويش فيما أرادوه لشيخهم ، أو على الأصح فيما أرادوه لأنفسهم ، إذ أنهم كانوا يقصدون بذلك جمع الأنصار والتأثير فى العامة وكسب المال على حساب أستاذهم .

هذا الصنيع من دراويش السيد كان يقابله انحلال العزائم ، وانحطاط العقل والإدراك فى المجتمع المصرى . فكان أن وجدت تلفيقاتهم وتهاويلهم عن السيد منبتاً خصباً ، فشاعت وذاعت وتقبلها الناس ، بل إنهم فتنوا بها ورسخت فى قلوبهم عقيدة لا تقبل الشك

(١) من ذلك مازعومة للسيد من الكرامات المدهشة والمعجزات الخارقة التى أشرنا إلى بعضها من قبل .

والجدل . ولأجل أن نعطيك صورة تمثل لك حال المجتمع المصرى فى تلك الآونة نقدم إليك ما أورده الجبرتى فى ترجمة الشيخ على البكرى إذ يقول : «وكان الشيخ على رجلا من البله ، وكان يمشى بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً ، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به ، واستمر على ذلك عدة سنين ، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه ، كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله ، فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت ، وألبسه ثياباً ، وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ، ونحو هذا ، فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به ، وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته وتأويلها بما فى نفوسهم ، وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم فى كراماته : وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات وينطق بما فى النفوس ، فانهمكوا فى التردد عليه ، وقلد بعضهم بعضاً ، وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شىء ، وخصوصاً نساء الأمراء والأكابر ، وراجت حال أخيه واتسعت أمواله ، ونفقت سلعته ، وصادت شبكته .. وسمن الشيخ من كثرة المأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البو العظيم ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات ودفن بمسجد الشرايبى بالأزبكية بالقرب من الرويعى ، فعمل أخوه عليه مقصورة ومقاماً ، وواظب عنده بالمقرئين والمداحين

وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم ومدائحهم ونحو ذلك ، وكانوا يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعون فى أعبابهم وجيوبهم ، فهرعت لزيارة قبره النساء والرجال بالنذور والشموع وأنواع المأكولات ، وصار مسجده مجمعاً وموعداً ، وفى ذلك يقول البدر الحجازى :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينـا   كل ذى جنة لدى الناس قطبا
علما هم به يلوذون بل قد   اتخذوه من دون ذى العرش ربا
إذ نسوا الله قائلين فـلان   عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلـوه مزارا   وله يهرعون عجماً وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض   عتب الباب قبلوه وتربا »

وإن هذا الذى يرويه الجبرتى عن ذلك الولى المزعوم ليدلنا على تهافت المجتمع المصرى وطواعيته لتقبل تلك الخزعبلات والتخليطات ، وانحداره إلى تلمس أبواب العزاء والتفريج عما كان ينطوى عليه ويستبد به من ألوان البؤس والشقاء ، وإن هذا ليوضح لنا أيضاً كيف تم للسيد بعد مماته ذلك السلطان الواسع والنفوذ الكبير على العباد والبلاد ؛ وكيف وجد أتباع السيد ودراويشه المنبت الخصب لترويج كل ما زعموه عن شيخهم ، ونسبوه إليه من الخوارق التى لا تزال متمكنة من النفوس إلى اليوم .

وعلى هذا يمكننا أن نقول أن المكانة الكبيرة التى تمت للسيد فى عالم القبطانية ومملكة الصوفية كانت نتيجة لثلاثة عوامل .. أولها : شخصية السيد .

وثانيها : صنيع أتباعه ودراويشه فيما زعموا له من الخوارق والكرامات .

وثالثها : انحلال المجتمع المصرى إنحلالا جعله يعيش تحت سلطان الخرافات والأوهام ..

وفى الفصل التالى سنقف على ما بذل أتباع السيد ودراويشه ، وما أبدوا من همة وبراعة فى دعم مكانة شيخهم ، والتوجه بدعوته على ما هو أهم ، حتى جعلوا له ولأنفسهم مملكة قائمة مستقلة فى المملكة المصرية ...

الفصل الخامس

أتباع السيد ومريدوه

كل ما تم للسيد من صيت ذائع فى الناس ، وكل ما صار له من ذكر ملأ الآفاق فى مصر وغير مصر ، وكل ما لفق له من الخوارق والكرامات والمعجزات .. ثم كل ما وسم له من المراسيم والتقاليد ، وما طرأ على دعوته من التحول إلى ذلك الاتجاه الذى ابتذلت به بين العامة على ما نشاهد اليوم .

كل هذا وما إليه إنما يرجع الفضل فيه إلى خلفاء السيد وأتباعه ودراويشه ، إن صح أن يكون الأثر لهذا كله فضلا ، أو فى شىء من الفضل .

فهؤلاء الخلفاء والأتباع هم الذين انطلقوا فى مناحى البلاد ، يحدثون الناس حديث شيخهم العطاب ، والضارب بالقرضاب ، وصاحب السر « الباتع » ويخترعون له الكرامات الخارقة ، والمعجزات الباهرة والمدهشات التى لم تكن لأحد من قبله فى الأقطاب والمشايخ ، ولقد أظهر هؤلاء الدعاة براعة فائقة فى جمع الأنصار ، وأبلوا كثيراً من الذكاء فى فهم عقلية الجماهير واجتذاب مشاعرهم ، فكأنى بهم وقد رأوا هدف السيد الحقيقى فى السياسة والملك والدعوة

إلى آل البيت لم يعد له موضع فى تطورات الأحداث التى وقعت على البلاد والعباد . وأدركوا أن الزمن بطبيعته تحول بإدراك الناس وبمشاعرهم تحت وطأة الحروب الصليبية إلى ما يشبه الإذعان والاستسلام وسقوط الهمم . فراحوا يتملقون عواطف العامة بتلفيق الأساطير ، والمبالغة فى إسناد الخوارق والمدهشات إلى شيخهم الذى بيده الغوث والعون ، وكلما وجدوا من العامة إقبالا على ما يلفقون زادوهم مبالغة فى التلفيق وإمعاناً فى التهويل . والعواطف المكبوتة المكدودة تستلذ نغمات الاستسلام والإذعان ، والعامة على الإطلاق تستهويهم المبالغات والتهويلات التى تستغرق وجداناتهم ، لأنهم يستجيبون للدعايات بعواطفهم وغرائزهم قبل أن يفكروا فيها بعقولهم ، ونحن أبناء الشعوب المتاخمة فى المنطقة الحارة لا تستهوينا ولا تشبع عواطفنا إلا المبالغات والتهويلات . المبالغات فى الشعر ، وفى الفن ، وفى كل لون من ألوان التعبير ، والتهويلات عمن نتحدث من القادة والزعماء وأصحاب الدعوات ، فالفكرة لا تقع موقع البشاشة من نفوس الأغلبية منا والعامة عندنا إلا إذا جاءت على هذا الوضع القوى التأثير ، وأنت إذا ما وقفت على هذه الحقيقة النفسية سهل عليك التحليل لما كان من سيطرة أولئك الأتباع والدراويش على عواطف العامة ، واستعبادهم لمشاعر الجماهير ، ولكثير من الاتجاهات الوجدانية والدينية بين طبقات الشعب .

هذا السلطان الذى أدركه أتباع السيد على نفوس العامة ، كان من الطبيعى أن يحك فى نفوس الفقهاء والحكام لأنهم كانوا يرون فيه منقصة لسلطانهم وانتقاصاً لسيطرتهم ، وكثيراً ما قامت فى هذا السبيل مصادمات ومنازعات ومؤامرات . ويفسر هذا ما يروى ابن إياس من أنهم تآمروا مرتين على قتل خليفة السيد البدوى(١) .

ولكن يظهر أن أتباع السيد كانوا أبرع خطة ، وأنفذ دعاية ، وأعز جانباً ، وخاصة بعد أن ارتطمت ثقافة الفقهاء بحضيض التلفيقات والخرافات ، وخضدت الأحداث السياسية من شوكة الحكام ، ولهذا سرعان ما رأينا هؤلاء الفقهاء والحكام يسيرون إلى جانب أتباع السيد فى مواكبهم ، ويصانعونهم فى آرائهم ، ويتخذونهم ذريعة للسيطرة على العامة ، إذ نرى الحكومة تبذل ما تبذل فى موالد السيد ومواكبه ، وترعى من شئونه وتقاليده كل ما يحببها إلى أولئك الدراويش وأتباعهم من العامة .

السطوحية :

هذه المهارة التى أبداها السيد ودراويشه فى اجتذاب العامة إنما هى سر من أسرار السيد فى تلقينهم الدعوة وتوجيههم ذلك الاتجاه ، فقد تخرجت الطبقة الأولى منهم على يديه ، وأخذوا عنه التعاليم مشافهة حيث كانوا يجتمعون به فوق السطح ، ولذلك سموا

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

بالسطوحية ، وكان عددهم أربعين شيخاً ، وقد قلت لك من قبل أن السيد كان يجتمع بهم فى حذق ومهارة ودهاء ، فما كان يقابل رجلين منهم معاً ، بل كان يقابل كل شخص على حده ، فإذا ما تبين فيه الإخلاص للدعو ، وتبين عنده القدرة على احتمال أعبائها بين الناس ، وجه به إلى حيث يستطيع أن ينشر لواءها ، وأن يجمع حولها الأنصار والمريدين ، وهكذا بعث السيد بأولئك السطوحية واحداً فى إثر واحد إلى أنحاء الديار المصرية من الإسكندرية إلى أقصى الصعيد . كما بعث منهم إلى نواحى الشام وإلى مكة نفسها .

وهكذا استفاض الحديث بسرعة مدهشة عن السيد البدوى فى أرجاء البلاد بفضل أولئك المريدين الدعاة ، الذين ملأوا بدعوته الآفاق على ما بدا لهم من الاتجاهات والنزعات فى اتخاذ البطانة ، واجتذاب العامة ، واكتساب المثالة بين الناس .

الشيخ عبد العـــال :

ولا يفوتنا هنا أن ننوه برأس أولئك الدعاة ، وشيخ السطوحية ، والخليفة الأول للسيد ، وهو الشيخ عبد العال الفيشاوى .

أصل هذا الشيخ من بلدة « فيشا المنارة » إحدى البلاد القريبة من طنطا ، وقد اتصل بالسيد فى أول قدومه إلى طنطا ، وكان هو لما يزل فتى حديثاً . ويظهر أنه لم يكن على جانب من الفقه والدراية العلمية ، ولكن يظهر أنه كان ذكياً لبقاً فى فهم مرامى شيخه ، وتلقى

تعاليمه ، والإخلاص فى خدمته ، لهذا ولأنه من جوار طنطا وله بأهلها وأهالى البلاد المحيطة بها خبرة ودراية ، فقد قربه السيد وجعله رأس خاصته ، وصاحب الأذن عليه حتى ينقل إليه ما يعرف من أحوال الناس وأحوال الحكام ، فكان له أشبه ما يكون بصاحب الديوان ، ولا ننسى أن للصوفية ديواناً فخماً تقدر فيه الدرجات والمراتب للأتباع والمريدين، كما تقدر فيه الحظوظ والأرزاق لعامة الناس المحبين .

ويعتبر عبد العال هذا بالنسبة لشيخه البدوى كما كان أفلاطون بالنسبة لأستاذه سقراط ، فكما أن أفلاطون قد حفظ تراث أستاذه ، وأضاف آراءه إلى آرائه ، وأقام من هذا « الخليط » بناء ضخماً فى عالم الفلسفة والفكر ، فكذلك تناول عبد العال دعوة شيخه البدوى فخلطها بأهوائه واتجاهاته ، وأقام لها الرسوم والطقوس ، وتمشى بها مع عقلية الأتباع والدراويش ، وبهذا يعتبر عبد العال نقطة التحول فى دعوة السيد إلى الاتجاه الذى سارت فيه من بعد ، وظهورها بالمظهر الذى نراها عليه اليوم ، وكان لشخصيته وعقليته فى هذا أثر ظاهر بارز . ويرى أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الفضل يرجع إلى عبد العال فى صقل الطريقة الأحمدية بالمظهر المصرى والروح المصرية وتخليصها من المظهر المغربى الذى كان عليه السيد ، فلم يبق لها من ذلك إلا اتخاذ اللثامين والبشت الصوف .

فالشيخ عبد العال قد أقام نفسه خليفة للسيد ، وارتضى الأتباع هذه الخلافة نظراً لما كان له من المكانة والقربى عند شيخه ، وبهذا ورث عنه آثاره فى مظاهر الدعوة وهى : البشت الصوف ، والعلم الأحمر ، واللثامان ، وقد بقيت هذه الآثار تركة يتوارثها الخلفاء من بعده ، ولقد بذل الرجل همه فى إعلان مظاهر الدعوة الأحمدية وبسط سلطانه على حساب هذه الدعوة . فهو الذى ابتنى المقام فوق ضريح السيد البدوى ، كما ابتنى خلوة للأتباع والدراويش حول هذا الضريح ؛ وقد تحولت هذه الخلوة فيما بعد إلى ذلك المسجد الكبير القائم الآن . ثم هو الذى رتب الرواتب للدراويش والفقراء ، وأمر بتصغير الخبز الذى يوزع عليهم ، ولا يزال الخبز الذى يوزع فى موالد السيد على هذه الحال إلى اليوم ، ثم هو صاحب الجهد فى إقامة الموالد للسيد والمواكب وسائر الرسوم التقليدية القائمة(١) .

ولقد كان الشيخ عبد العال يفرض سلطانه على الأتباع والمديرين بنفوذ شيخه ، وبما ينقل لهم من تعاليمه التى كان يزعم أنه اختصه بها ، وآثره بنصوصها ، فكانوا يتقبلون ذلك منه بالإذعان والابتهال ، ويظهر أنه كان حاد المزاج يعامل الأتباع بالصرامة والشدة ؛ وهو يوصف عند العامة بهذه الصفة ، وأنهم ليضربون به المثل فى ضيق العطن وعدم الاحتمال ، ويزعمون أنه لا يزال على هذه الصفة بعد

---

(١) الجواهر السنية وطبقات الشعرانى .

مماته ، فإذا ما تكاثر الزائرون فى مقامه قعقع السقف من فوقهم دلالة على ضيق الشيخ بهم ، وليست هذه هى الأسطورة الوحيدة التى يحكيها العامة عن الشيخ عبد العال ، بل إن حياته وشخصيته وصلته بالسيد ليست كلها فيما يرويه الدراويش ويعتقده العامة إلا سلسلة من الأساطير والخرافات ، فهم لم ينسوا أن يزعموا له جملة من الكرامات والخوارق على نحو ما زعموه للسيد ، ولكنهم راعوا أن يكون عبد العال فى هذا أقل جهداً وبركة ، وهذا أمر طبيعى .

توفى عبد العال عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة للهجرة ، فإذا عرفنا أن السيد توفى عام خمس وسبعين وستمائة ، أدركنا أن الشيخ عبد العال قد بقى يحمل لواء الدعوة حوالى ثمانية وخمسين عاماً ، وهى مدة طويلة مكنت له فى إدراك أغراضه ، وأفسحت أمامه المجال فى توطيد أركان الدعوة كما يريد ، ولقد دفن عبد العال بجوار السيد ، وأقيم له مقام كان من الطبيعى أن يكون أقل من مقام شيخه ، أى على قدر ما يكون بين الأستاذ والتلميذ ، والشيخ والمريد ...

الخلافة فى أسرة عبد العال :

ولقد استمرت خلافة السيد بعد موت الشيخ عبد العال فى أسرته ويظهر أنها صارت فى هذه الأسرة تقليداً وراثياً ، فقد أورد الحافظ ابن حجر ثبتاً مسلسلا بمن تولى الخلافة الأحمدية من هذه

الأسرة فقال : « ومن بعد الشيخ عبد العال تخلف شقيقه الشيخ الصالح زين العابدين بن عبد الرحمن فعمر البيت ، وقصده الناس للزيارة من كل جانب ، وتبركوا به ، وأتوه بالنذور . واستشفعوا به عند الحكام حتى توفى فى الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، ثم تخلف من بعده الشيخ الصالح نورالدين أبو محمد شقيق الشيخ عبد العال أيضاً فلم يزل قائماً بشعائر المقام حتى توفى فى رجب سنة تسع وثمانين وسبعمائة . ثم تخلف من بعده ولده المعمر محمد شمس الدين ، فساد وجاد . وخضعت له رقاب الولاة وغيرهم حتى توفى فى شعبان سنة اثنين وأربعين وثمانمائة ودفن بالمقام . وتخلف من بعده ولده أحمد فسار سيرة حسنة فى المقام حتى توفى فى ذى الحجة سنة ست وأربعين وثمانمائة ودفن بالمقام ، ثم تخلف من بعده ولد أخيه الشيخ عبد الكريم بن على بن محمد فلم يزل خادماً للمقام(١) ، حتى توفى مقتولا سنة اثنين وستين وثمانمائة » .

ويبدو لى أن قتل هذا الخليفة الأخير كان يرجع إلى أسباب تتعلق بالخلافة ، بدليل أنها خرجت من هذه الأسرة وصارت — كما يقول السخاوى — إلى شيخ اسمه سالم ، وعلى أية حال فإن أحداً من هؤلاء الخلفاء لم يكن له من الأثر فى خدمة الطريقة الأحمدية ، ولم يكن له من التقدير والإجلال مثل ما كان للشيخ عبد العال .

(١) الجواهر السنية ص ٢٩ وما بعدها .

الشناوى ... والشناوية :

ولكن حدث بعد ذلك أن غلب الشناوية على الخلافة الأحمدية .

وهم ينتسبون إلى الشيخ عمر الشناوى من بلدة شنوى ، وكان من أتباع السيد السطوحيين كما مر بك ، وقد تمت الرياسة والمكانة فى ذلك لحفيده الشيخ محمد الشناوى . ويقول بعضهم إنه يتصل بالنسب إلى الشيخ عبد العال ، وقد ترجم له الشعرانى فى الطبقات وأطنب فى مدحه وتمجيده ، وقال إنه كان صاحب جاه وسلطان واسع حتى أن أهل الغربية كانوا لا يزوجون أولادهم ولا يختنونهم إلا بحضوره . ويؤخذ من كلام الشعرانى ورواة المناقب أن هذا الشيخ قد أبدى همة كبيرة فى خدمة الطريقة الأحمدية ورعاية أهلها ، ويقول الشعرانى إنه "هو الذى أبطل البدع التى كانت تحدث فى مولد السيد ، ومنع الدراويش من نهب متاع الناس وأكل أموالهم بغير طيبة نفس ، وكانوا قبل ذلك يقولون إنه حلال ، لأن جميع بلاد الغربية بلاد السيد البدوى ونحن من فقرائه" ، وكان من عادة الشناوى أن يحضر مولد السيد من بلده فى موكب عظيم يعلو فيه التهليل بالذكر ، وفى أثناء الطريق ينضم إليه كثيرون من أهالى البلاد حتى يمتد الموكب ويتزاحم فيه الخلائق ، ويظل سائراً إلى أن يدخل المقام الأحمدى ، ولا يزال من المتبع إلى الآن أن يخرج خليفة السيد فى يوم الأربعاء من أيام المولد إلى قنطرة شمنود . أى عند مدخل

مدينة طنطا قديماً ، حيث يستقبل الشناوية على ما كان من العادة فى ذلك من قبل ، والشناوية الآن طائفة كبيرة تتبع الطريقة الأحمدية وتعرف بالشناوية الأحمدية .

خلفاء السيد ونظام الخلافة :

ولكن على الرغم مما أدرك خلفاء السيد من مكانة فى المجتمع وجاه بين الناس يزرى بجاه الحكام ، وسلطان عريض واسع على العباد ، فان المؤرخين لم يعنوا بتدوين تاريخهم كما يجب ، ولم أستطع أن أحصى من المصادر الكثيرة التى وقفت عليها سلسلة متصلة بأسماء هؤلاء الخلفاء الذين جاءوا بعد الخليفة الأول عبد العال ، كما لم أستطع أن أحصى عن تاريخ حياتهم شيئاً يذكر . أو يستحق أن ينوه به . غير ما أشرت إليه من قبل عن عبد العال والشناوى . على أن المؤرخين عامة ورواة المناقب خاصة يتحدثون عن خلافة السيد كأنها وضع من أوضاع الدولة ، ويضفون عليها من المهابة والإجلال الشىء الكثير

ولقد ظل نظام الخلافة للسيد متبعاً كما أقامه الشيخ عبد العال ؛ فمن حق الخليفة أن يرث تراث السيد من اللثامين والبشت الصوف والعلم الأحمر ، وأن يتقبل النذور والأموال الموقوفة والعطايا الممنوحة وله التصرف فى أمرها كما كان له السلطان المطلق على جميع أتباع الطريقة الأحمدية ودراويشها فى سائر الأمصار . أما واجبه فأمر خفيف ظريف وهو أن يقرأ ورد الطريقة مع الأتباع بعد صلاة

الجمعة من كل أسبوع فى الخلوة الأحمدية ، كما عليه أن يركب تلك الركبة المعروفة بركبة الخليفة فى المولد ، ويظهر أن الجانب العلمى لم يكن يراعى فى اختيار هؤلاء الخلفاء ، فكثيراً ما كانوا يختارون من الجهلة الأميين ، وكل ما هناك أن يراعى فى ذلك صلة نسب أو قرابة ، ومظهر صلاح وإخلاص للطريق .

ولقد تطور الزمن بأوضاع الخلافة الأحمدية ، فصار فى عصر من العصور يختار للسيد خليفتان ، ولسنا ندرى على التحقيق متى قام هذا الوضع ، وهو لا يزال جارياً إلى اليوم . كما أن تدخل وزارة الأوقاف فى شأن هذه الخلافة جعل نظامها محصوراً وسلطانها ضيقاً ، فليس للخليفة سلطان إلا على خدام المقام وهم المعرفون بالمقاماتية ، كما لم يصبح له فى النذور والأوقاف إلا النسبة المقدرة له فى صندوق النذور (١) ، ثم ما يصل إليه من الهدايا والعطايا الخاصة . أما الإشراف على الأوقاف والأضرحة وما إلى ذلك فالأمر فيه الآن لوزارة الأوقاف .

سدانة الضريح :

على أن هناك وظيفة أخرى يظهر أنها كانت ذات خطر وشأن إلى جانب الخلافة الأحمدية ، وأنها كانت أيضاً وسيلة للثراء وكسب

(١) يأخذ خليفتا السيد ١٨ ق المائة من صندوق النذور أما ما يغله الصندوق فأنه يخضع زيادة أو نقصا لحالة الرواج بين الشعب ، وهو على أية حال يقدر بالألوف

الأموال وقوة النفوذ ، وهى وظيفة خدمة الضريح ، أو سدانة الضريح كما يسميها الجبرتى ، ولقد ذكر الجبرتى فيما كتبه عن على بك الكبير أنه اهتم بانشاء العمارة العظيمة الخاصة بالمقام الأحمدى وتوابعه ، وأنه « ولى المعلم حسن عبد المعطى المشد على تلك العمارة سدانة الضريح الأحمدى بدلا من أولاد سعد الخادم لسوء سيرتهم وظلمهم ؛ فنكبهم على بك وأخذ ما أمكنه أخذه من أموالهم ، وهو شىء كثير أنفقه فى هذه العمارة (١) .. » ، ومن ذلك يتبين أن خدمة الضريح كانت وظيفة لها خطرها ومكانتها ، وأنها كانت طريقاً للظلم وأخذ الأموال .

ولكن يفهم من رواية أخرى للجبرتى أن سدانة الضريح قد عادت مرة ثانية إلى أسرة الخادم بعد على بك الكبير ، وأن الأقدار قد نكبتهم نكبة أشد وأقسى ؛ وذلك أثناء الحملة الفرنسية على مصر. قال الجبرتى وهو يروى الحوادث التى وقعت بين المصريين والفرنسيين عام ١٢١٥ للهجرة : « ومنها أنه لما حضرت العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنساوية لهم ، نزل طائفة من الفرنسيين إلى المنوفية وطلبوا من أهلها كلفة لرحيلهم ، وقد مروا بطنطا ونزلوا بها ، وحدث أن وصل رجل من المنتسبين للعثمانية من جهة الشرق لزيارة

(٢) الجبرتى جـ١ ص ٣٨٥

سيدى أحمد البدوى وهو راكب على فرس وحوله الخمسة أنفار ، وكان بعض الفرنسيين بداخل البلدة يقضون بعض أشغالهم ، فصاحت السوقة والباعة عند رؤية ذلك الرجل بقولهم : نصر الله دين الإسلام وهاجوا وماجوا ، ولقلقت النساء بألسنتهن ، وصاحت الصبيان ، وسخروا بالفرنسيين ، وتراموا بما على رؤسهم ، وضربوهم وجرحوهم وطردوهم ، فانسحبوا من عندهم ، ثم غابوا ثلاثة أيام ورجعوا إليهم بجمع من عسكرهم ، ومعهم الآلات من المدافع ، فاحتاطوا بالبلدة ، وضربوا عليهم مدفعاً ارتجوا له ثم هجموا عليهم وبأيديهم السيوف المسلولة ، ويقدمهم طبلهم ، وطلبوا خدمة الضريح الذين يقال لهم أولاد الخادم . وهم ملتزمو البلدة وأكابرها ، ومتهمون بكثرة الأموال من قديم الزمان ، وكانوا قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر قبضوا عليهم باغراء القبط ، وأخذوا منهم خمسة عشر ألف ريال فرانسه بحجة مسالمتهم للعرب ، فلما وصلوا إلى دورهم ، فلم يمكنهم التغيب خوفاً على نهب الدور وغير ذلك ، فلما ظهروا لهم أخذوهم إلى خارج البلد وقيدوهم ، وأقاموا نحو خمسة أيام خارجها يأخذون فى كل يوم ستمائة ريال سوى الأغنام والكلف . ثم ارتحلوا وأخذوا المذكورين صحبتهم إلى منوف ، وحبسوهم أياماً . ثم نقلوهم إلى الجيزة أيام الحرابة بمصر ، فلما انقضت تلك الأيام وسرحوا فى البلاد نزلت طائفة منهم إلى طنتدا وهم بصحبتهم وقدروا عليهم واحداً وخمسين ألف ريال فرانسه ، وعلى أهل البلد كذلك بل أزيد ،

وأقاموا حول البلد محافظين عليهم ، وأطلقوا بعضهم وحجزوا المسمى مصطفى الخادم لأنه صاحب الأكثر فى الوظيفة والالتزام ، وطالبوه بالمال ، وفى كل وقت ينوعون عليه العذاب والعقاب والضرب على كفوف يديه ورجليه ، ويربطونه فى الشمس فى شدة الحر والوقت صيف ، وهو رجل جسيم كبير الكرش ، فخرجت له نفاخات فى جسده ، ثم أخذوا خليفة المقام أيضاً وذهبوا به إلى منوف ، ثم ردوه وولوه رئاسة جمع الدراهم المطلوبة من البلد ، فوزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك ، وقد استمروا على ذلك إلى انقضاء العام حتى أخذوا عساكر المقام ، وكانت من ذهب خالص زنتها نحو خمس آلاف مثقال »(١) .

وإن هذه القصة التى يرويها الجبرتى لتصور لنا تصويراً واقعياً مدى ما كان لخدمة ضريح السيد والقائمين بوظائفه من الخطر ، وكثرة المال فى تلك الأيام .

القوم الفقـــراء :

وكان أتباع السيد ومريدوه يسمون أنفسهم بالفقراء ، وهى تسمية عامة بين الأتباع والمريدين فى سائر الطرق الصوفية ، ولكن أتباع السيد جعلوا مراتب التسمية ثلاثاً ، فكانوا يسمون أنفسهم بالفقراء ، ويسمون سائر الصوفية بالقوم ، ويسمون عامة الناس بالخلق ، فكأنهم كانوا يرون الفقر أعلى المراتب ، وهم يعنون بذلك

(١) الجبرتى ج٣ ص ١٧ .

الفقر إلى الله ، وإن كانوا يتخلون لذلك مظهر الفقر الدنيوى ، فكانوا يلبسون المرقعات ، ويؤثرون التقشف والحياة الخشنة القليلة المطالب ، ومن الاعتقادات السائدة عند الصوفية أن الفقر حلية وقربى يقتدون فيها بالنبي صلوات الله عليه ، وقد سيطرت هذه العقيدة على أذهان العامة إلى حد بعيد ، ولا تزال إلى اليوم يتردد صداها فى النفوس ، وتؤثر على عقلية الجماهير ، والواقع أن هذه العقيدة قد أضرت بالحياة الاجتماعية فى مصر بل فى العالم الإسلامى جميعه — ضرراً كبيراً ، لأنها جعلت العامة والطبقات المكدودة تطمئن لفقرها واحتياجها تحت تأثير تلك الدعوة المخدرة التى أقنعت هؤلاء البائسين أن الفقر حياة الأنبياء والصالحين ؛ وأنهم سيجزون على هذه الحياة فى الآخرة بالثواب الجزيل والأجر العظيم ، ومن ثم لم يطمعوا فى تغيير هذه الحياة وتبديلها بما هو أطيب وأحسن ، مؤثرين على ذلك حياة السعادة فى الجنة .

من هم السطوحية .. ؟

ولقد كان الطليعة لأتباع السيد فى حمل لواء الدعوة وجمع الأنصار هم أولئك القوم الذين اتصلوا بالسيد فى أول مرآه ، وتلقوا عنه الدعوة فوق سطح دار ابن شحيط ، ولقد حفظت لنا كتب المناقب ثبتاً طويلا بأسماء هؤلاء السطوحيين ، وأسماء الجهات التى تفرقوا إليها يحملون دعوة شيخهم .. وهم : الشيخ عبد العال الفيشاوى الذى عرفناك به ، وشقيقه عبد المجيد الذى لازم السيد فى

أول أمره وصعق لما كشف السيد له لثامه ، ثم الشيخ عبد الوهاب الجوهرى وقد وجهه السيد إلى ناحية الجوهرية ليقوم بالدعوة ومات بها ، والشيخ قمر الدولة بناحية نفيا ، والشيخ وهيب بناحية برشوم الكبرى ، والشيخ يوسف والد الشيخ إسماعيل الإمبابى المدفون بامبابة وصاحب المولد بها ، ويقولون إن الشيخ يوسف هذا كان قد خرج على قصد الطريق واصطدم بالشيخ عبد العال الخليفة الأول للسيد من أجل ذلك ، فسحب منه عبد العال الولاية ومنح سرها لولده إسماعيل فأصبح صاحب السر والجاه .. ثم الشيخ أحمد المعلوف بنواحى القليوبية ويسمى أتباعه بالمعاليف ، والشيخ على البريدى وقد دفن تجاه السيد فى طنطا ، والشيخ عبد العظيم الراعى ، والشيخ رمضان الأشعث المدفون بناحية منف . والشيخ محمد الفران الذى كان يشتغل بصناعة الخبز ، والشيخ عمر الشناوى بناحية شنوى وهو الشيخ الأول للطريقة الشناوية الأحمدية ، والشيخ خلف المدفون بقنطرة سنقر بمصر ، والشيخ محمد الكناس الذى كان يقوم بكنس ضريح البدوى ، والشيخ يوسف البرلسى المدفون بالبرلس ، والشيخ جمال البرلسى من البرلس كذلك ، والشيخ أبو جنينة المدفون بركة القرع بمصر ، والشيخ على البعلبكى المدفون بناحية بعلبك ؛ والشيخ مبارك المنوفى نسبة إلى منف التى كان يقيم بها ، والشيخ محمد الحرقانى بناحية قلبوب ، والشيخ محمد الشيشينى ، ثم الشيخ سعدون وكان يقيم فى خرابة بناحية بلبيس إلى أن مات بها ، والشيخ

خليل الشامى الذى وجهه السيد إلى الشام ومات هناك ، والشيخ على الزنكلونى ، والشيخ خلف الحبيشى المدفون بميت حبيش بالقرب من نفيا ، والشيخ على الكيروانى الذى قصد إلى اليمن وأقام بها ، والشيخ محمد الصناديدى من صناديد ، والشيخ عصام الدين المدفون بالقرب من بركة الناصرية بمصر ، والشيخ سعد التكرورى المدفون بحوران ، والشيخ محمد الزعفرانى المدفون بناحية طرا ، والشيخ نعمة المدفون بناحية صفد ، والشيخ عبد الله اليونانى المدفون ببعلبك ، والشيخ عز الدين الموصلى وقد اتصل بالسيد وهو فى العراق وصحبه ومات بالموصل ودفن بها ، والشيخ أحمد بن علوان اليمنى بناحية تعز باليمن ، والشيخ عوسج المصرى المدفون بزبيد من أرض اليمن ، والشيخ أحمد بطالة بناحية فيشا المنارة ، والشيخ شعيب المدفون بالقرب من باب البحر بالقاهرة ، والشيخ أحمد أبو طرطور بناحية أوسيم بالجزيرة ، والشيخ أحمد الأباريقى المدفون بروضة المقياس ، والشيخ بشير المدفون بباب المعلاة بمكة ، والشيخ بشير أيضاً المدفون بدرب السدى بالقاهرة .

هؤلاء هم الذين تضمن الثبت الوارد أسماءهم من أتباع السيد المعروفين بالسطوحية ، أما أتباعه من غير السطوحية فكثيرون جداً ، وهم طبقات متتابعة ، وقد تضمن ذلك الثبت منهم الشيخ عماد الدين المدفون بالقرب من بركة الناصرية بالقاهرة ، والشيخ الفرغل بن أحمد صاحب المولد المشهور بأبى تيج ، والشيخ البقلى ، والشيخ إبراهيم المتبولى ،

والشيخ نور الدين الشونى ، والشيخ محمد المنير وكلهم بناحية أبى تيج ، والشيخ الصامت ، والشيخ على المجذوب بأسيوط ، والشيخ على رعية والشيخ شعيب الوراق بالمحلة الكبرى ، والشيخ على العريان ، والشيخ على المجذوب بنواحى بولاق ، والشيخ عنتر المدفون بالقرب من باب زويلة ، والشيخ على الجيزى بباب القرافة ، والشيخ على أبو الظهور فى الطريق إلى الإمام الليث ، والشيخ على باب الله بجوار شهاب الدين الرملى ، والشيخ محمد النجار بناحية باسوس على شاطىء النيل ، والشيخ غوش بن عدى بالصعيد ، وغيرهم ممن تفرقوا فى مصر والشام وسائر الأقطار العربية المجاورة ، ولهم أضرحة ومقامات تزار وتمجد وتقام لهم الموالد والمواكب فى كل عام .

هذا ملخص لذلك الثبت الذى أوردته كتب المناقب عن أتباع السيد ومريديه من السطوحية وغير السطوحية ، وإنى لأشعر أنى أثقلت عليك بهذا السرد الطويل ، ولكنى فى الواقع تعمدت هذا وقصدت إليه ، لأن الإمعان فى هذا الثبت يكشف لنا عن اتجاهات خطيرة فى دعوة السيد ، كما يكشف لنا عن العوامل التى ساعدت على ذيوع هذه الدعوة فى كل مكان ، وجعلت لها ما جعلت من النفوذ والسلطان ، فأنت ترى أن السيد لم يفتر فى توجيه أتباعه إلى داخل البلاد ، بل إنه أرسل ببعضهم إلى نواحى الشام واليمن وسائر الأقطار العربية ، ومعنى هذا أن الرجل كان يطمع فى تعميم دعوته وإعلانها فى كل هذه النواحى . حتى يملأ بها نفوس المسلمين

عامة ، ثم أنت ترى أن هؤلاء الدعاة قد توزعوا فى البلاد يدعون بدعوة شيخهم ، ويجمعون من حولهم الأنصار و الأتباع على طريق هذه الدعوة ، وبهذا امتد نفوذ السيد وذاع صيته حتى ملأ أرجاء العالم العربى ، فكان الناس يشدون الرحال من أقاصى البلاد لحضور مواكبه ومشاهده .

تشعب الطريقة الأحمدية :

ولا ننسى أن كل شيخ من هؤلاء الدعاة قد أقام هو الآخر من حوله مشيخة كبير ، واصطنع الأتباع والمريدين الذين تفرقوا هم كذلك يحدثون الناس بمناقبه وكراماته وخوارقه ، على نحو ما كان من أتباع السيد ومريديه فى بادىء الأمر ، ولقد كان من أثر هذا أن افترقت الطريقة الأحمدية إلى شعب كثيرة كبيرة ، كل شعبة منها تعتبر مشيخة لها دراويشها ورسومها . فمن ذلك السطوحية ، والبيومية والمناوية ، والتسقيانية ، والشعيبية ، والحبيبية ، والإمبامبية ، والسلامية ، والمنايفية ، والكناسية ، والمرازقة ، والزاهدية ، والعربية ، والحمودية ، والغزالية ، والأكبرية ، وهذه الطرق كلها أحمدية ، وهى تتوزع بدعواتها فى سائر بلاد القطر ، مدنه وقراه ، ولكنها تجتمع فى عرض عام شامل بالمولد الأحمدى الكبير ، وأنت تستطيع بمراجعة الثبت الذى أوردناه آنفاً بأسماء الأتباع والمريدين للسيد أن ترد كثيراً من هذه الطرق إلى شيخها الأول .

دفع شبهة :

وقبل أن نختم هذا الفصل لابد من أن نعرض لشبهة أوردها

الباحث «فولرز» الذى كتب مادة السيد البدوى فى دائرة المعارف الإسلامية وصعب عليه أن يدرك الحقيقة فيها إذ قال :

« ويصعب علينا أن نعرف ما إذا كانت الأضرحة التى تنسب إلى السيد البدوى تمت إليه حقيقة بسبب أم لا ، فلقد اكتشفت ضريحاً ينسب للسيد البدوى بين ترب الصحابة بالقرب من أسوان ، كما ذكر (برخارت) ولياً بنفس الإسم عند طرابلس الشام ، وهناك ولى آخر بالقرب من غزة بنفس الإسم ... » .

والواقع أن التعليل لهذا واضح قريب ، وأحسب أن القارىء قد فطن إليه من ثنايا ما قدمنا فى الكلام على أتباع السيد وانتشارهم فى أرجاء مصر وغير مصر من البلاد الإسلامية ، ذلك لأن هؤلاء الأتباع والدراويش الذين توزعوا فى تلك الأنحاء يحملون لواء الطريقة الأحمدية إنما كانوا ينتسبون لشيخهم ، وكانوا يقيمون له الموالد والمواكب حيث يقيمون . نظراً لمشقة الانتقال فى تلك الأيام ويتعذر السفر على الموالين لهم إلى طنطا ، ثم تحولت هذه الموالد والمواكب على توالى الأيام لهم هم أنفسهم ، وعرفوا بين الناس باسم شيخهم والانتساب إليه ، وهذا هو السر فى تشابه الأسماء ووجود الأضرحة الكثيرة التى يحمل أصحابها اسم الأحمدى ، والبدوى ، والملثم ..

ولابد أن نشير هنا إلى أن تشابه الأسماء بين ساكنى القباب والأضرحة العالية فى العالم الإسلامى ، وبخاصة فى مصر ، من الأمور الشائعة بين السيد وأتباعه ، وبين الأولياء وأتباعهم ، ونحن فى مصر نرى عشرات بل مئات المقامات والأضرحة التى يحمل أصحابها اسم العراقى ، ذلك لأن كثيرين من أتباع الحسين بن على قد نزحوا إلى مصر بعد مصرعه فى كربلاء ثم توزعوا فى المدن والقرى المصرية وعرفوا بين الناس بالعراقيين ، فكان كلما مات أحد منهم أقيم له ضريح وقبة وعظمه الناس،وعرف ضريحه بضريح الشيخ العراقى ، وبهذا توجد مئات الأضرحة والقباب التى يحمل أصحابها هذا الإسم .

على أن هناك ناحية أخرى ملحوظة فى هذا المقام ، ذلك أن العامة عندنا يحرصون على أن يسموا أبناءهم بأسماء أولئك المشايخ بركة بهم وقربى إليهم ، ففى كل جهة من جهات مصر تكثر الأسماء وتشيع بين الناس باسم الولى المعتبر فيها والمتسلط عليها ، ونحسب أن ما سقناه يكفى فى كشف تلك الشبهة التى أوردها ذلك الباحث ..

الفصل السادس

مولد السيد ومواكبه

للسيد ثلاثة موالد : المولد الكبير ، ثم المولد الوسيط ، ثم المولد المعروف بالرجبى ، ولكن المولد الكبير يعتبر أهمها أثراً ، وأفخمها مظهراً ، وأحفلها بالمشاهد ، وإذا ما تحدث الناس عن مولد السيد فانه يكون المقصود بالحديث ولا تنصرف الأذهان إلا إليه .

والحق أن الفكرة فى قيام هذه الموالد الثلاثة لم تنحصر بواحد منها الاحتفال بذكرى ميلاد السيد كما هو المدلول اللغوى لكلمة المولد ، ولكنها احتفالات ومواسم اصطنعها فقراء الصوفية وأتباع الشيوخ لتكون مجمعاً لهم ، وللناس من حولهم، وقد تلمسوا لها الأسباب والوسائل المناسبة مراعين فى هذا ما يتمشى مع رغبات الشعب ، ويجتذب الجماهير من مختلف الطبقات ، وعلى هذا الوضع قامت جميع الموالد التى صارت للأولياء فى مصر وغير مصر ، فهى إحتفالات ينال بها الأتباع والمريدون ما يشتهون من العطايا والنذور، ويجد فيها الشعب فسحة لرغباته فى التدين والتوسل ، وفى اللهو والمجون ، والتسلية وتزجية الوقت ، وقد أصبح هذا كله هو المعنى المفهوم لكلمة « مولد » فى عرف الناس وتقديرهم ، وفى المثل الدارج يقولون« انشا الله ياصاحب المولد وانشا الله ياصاحب الفرح»،

فهم يفهمون المولد على أنه فرح عام ، يجرى الشأن فيه على الضجة المختلطة والتوسع فى مقارفة الأعمال ، ولعلك تعلم أن هذه الموالد والمواكب التى تقام للشيوخ الصوفية لم تكن من أصل الدين فى شىء وليس لها وضع فى الإسلام ، فقد انتقل النبى صلوات الله عليه إلى جوار ربه ، ولم يقم له احتفال بمولد كما نرى . وكذلك كان الخلفاء من بعده ، ولم يحدث أن بدأ التفكير فى شىء من هذا على عهد الأمويين والعباسيين ، وكل ما كان وما زال قائماً إلى اليوم فى هذا الشأن إنما يرجع إلى ما ابتدعه الفاطميون أيام حكمهم لمصر فى القرن الرابع للهجرة ، وما أحدثوه من الطقوس والرسوم والمواكب والأعياد التى وسموها بسمة الدين ، وتمشوا بها مع رغبة الجماهير من جهة أخرى ، فهم الذين أقاموا الاحتفال برأس السنة الهجرية ، وبليلة المولد النبوى الكريم ، وليلة أول رجب ، وليلة المعراج فيه ، وليلة أول شعبان ونصفه ، وغرة رمضان ، ويوم الفطر ، ويوم النحر ، وهم الذين ابتدعوا الاحتفال بمولد أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى ، والتى ينتسب إليها الخلفاء الفاطميون ، ويوم عاشوراء وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على فى كربلاء ، وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد فى فيض من الروعة والبهاء والبذخ فينتظم ركب الخليفة برسومه ومظاهره الفخمة ، وتقام لذلك المآدب والحفلات الشائقة ، ويكثر البذل والعطاء ،

ويستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة بالفرح ، وتغمره البهجة والسعة والمرح ، وكانت هذه المواسم والمناسبات متواصلة متتابعة ، فكان الشعب لا ينتهى من الإبتهاج بعيد ، إلا على الاستعداد لاستقبال عيد آخر (١) .

ويظهر أن الفاطميين قد تأثروا فى هذا كله بما كان يجرى فى مصر من الاحتفالات القديمة ، والأعياد التى كانت تقام فى المناسبات والمواسم القومية والمسيحية وللشهداء والقديسين من المسيحيين ، وكان الخلفاء الفاطميون أنفسهم يشاركون فيها ويجرون عليها كثيراً من الرسوم والتقاليد والأموال ، ومن هذا كله نبتت الفكرة فى إقامة الموالد لشيوخ الصوفية ، إذ كان الدراويش والمريدون يقيمونها لشيوخهم بعد مماتهم إكباراً لشأنهم وتعظيماً لقدرتهم ، وحفظاً لطريقتهم .. وهكذا كانت الفكرة فى إقامة المولد الكبير للسيد البدوى

كيف أقيم المولد الكبير .. ؟

ويرى بعض الباحثين أن الفكرة فى إقامة المولد الكبير للسيد إنما ترجع إلى ما حدث بعد مدة من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف عند ضريحه ، ولما كان السيد قد توفى فى ١٣ ربيع الأول كما مر بك وهو موعد الاحتفال بالمولد النبوى ، فان الدراويش والأتباع قد استغلوا هذه المناسبة وصاروا يحتفلون بمولد السيد ، ولكن الراجح

---

(١) راجع صبح الأعشى والمقريزى والحاكم بأمر الله تأليف عبد الله عنان

فى ذلك ما حققه الباحثون وحكاه على مبارك باشا إذ قال : وسمعت من بعض المشايخ فى أصل عمل المولد للسيد البدوى ، أن السيد لما توفى كان كثير من تلاميذته متفرقين فى البلاد ، فلما سمعوا بوفاته حضروا بأتباعهم ومن معهم إلى طنطا ليعزوا فيه خليفته عبد العال ، وكانت طنطا وقتذاك قرية صغيرة ، فلم تكن تتسع لكل هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها ، وأقاموا فى تلك الخيام ثلاثة أيام ، فلما أرادوا الرحيل شيعهم عبد العال وودعهم إلى خارج طنطا ، فقالوا له هذه عادة مستمرة نحضرها كل عام فى هذا الميعاد إن شاء الله ، فلما كان العام القابل حضروا للميعاد ، ثم حضروا فى الذى بعده ، واستمرت هذه العادة فنشأ من ذلك المولد الكبير ، وكان فى الأصل ثلاثة أيام ، ثم زاد إلى ثمانية أيام كما هو عليه الآن (١) .

وقد وضع الشيخ عبد العال لذلك المولد النظم والأوضاع التى لا تزال سائدة جارية إلى اليوم ، وإن ما جرى فى هذا المولد من ركبة الخليفة إنما يرجع إلى ما كان من ركوب الشيخ عبد العال مع جماعته لتوديع المريدين والدراويش الوافدين لإحياء مولد السيد ، ومن تعاليم الفقراء الصوفية أنهم إذا ما أجروا أمراً صار عندهم عادة متبعة يداومون عليها ويتخذونها تقليداً من تقاليدهم . ومن هذه التقاليد أن العادة تثبت بمرة واحدة .

وسرعان ما تحول الوضع فى إقامة هذا المولد للسيد إلى موسم شعبى ، وصار مقصداً لجميع طوائف الشعب المصرى بخاصة لأهل

(١) علم الدين ج ١

الريف الذين هم أغلبية الشعب ، وعندهم اللهفة على حضور هذه المحافل للتفريج عن نزعاتهم المكبوتة ، وللترويح عن نفوسهم المكدودة ، واستجابة لما يحسبونه من شئون الدين وأموره ، ومن ثم أصبح هذا المولد بمثابة احتفال دينى كبير تقدم فيه النذور والقربات ، وتقام فيه الصلوات والحضرات ، وتعقد به المجالس والحلقات ، كما أصبح إلى جانب ذلك سوقاً تجارية واسعة النطاق ينتقل إليها الناس من أقاصى البلاد للبيع والشراء ، ويروى ابن إياس والجبرتى وغيرهما من المؤرخين أن تجاراً من الهند وبلاد الروم والشام كانوا يشدون الرحال إلى ذلك المولد للتجارة ، وعرض ما يحملون من البضائع النادرة ، ويقول « كلوت بك » وهو يتحدث عن مدينة طنطا على عهد محمد على باشا : والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الكبير الذى يقام فى كل عام إجلالا له وفى هذا المولد تزدحم مدينة طنطا بالزائرين ، إذ يقصد إليها التجار من بلاد تركيا وفارس وكثير من بلاد أفريقيا يحملون إليها معهم الأقمشة المطبوعة والمناديل والثياب الحريرية ، ولعب الأطفال والأوانى الصلصالية والخزفية ، وريش النعام والأرقاء للتجارة ، وهم يعرضون هذه البضائع على الأنظار فى الدكاكين وتحت المظلات التى كثيراً ما تشغل متسعاً من الأرض طوله نحو أربعة فراسخ على صفين متوازيين ، أما الذين يحضرون إلى المولد بقصد الزيارة لا الإتجار فإنهم يضربون الصواوين والخيام بغرب المدينة ، فيجيء الحواة وبنات الهوى الراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقا ليطلعوا تلك

الجماهير على فنونهم وصناعاتهم ، وقد اعتادت الحكومة أن ترسل إلى طنطا فى أيام المولد أربعة آلاف جندى لحفظ الأمن والنظام ، ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم لما هو معروف عنهم من الحيلة والدهاء ، وبانتهاء المولد الأحمدى تعود طنطا إلى سابق عهدها من السكون، وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس ، وتصبح وكأنها قفر بلقع..

المولد الصغير :(١)

هذا هو الشأن فى المولد الكبير ، أما المولد الصغير . ويسمى بالوسيط أيضاً ، وبالشرنبلالى كذلك ، فانهم يقولون فى أصله أن أحد الشيوخ المنتمين للسيد ويسمى بالشيخ الشرنبلالى كان قد حضر مرة فى غير وقت المولد إلى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته ، فأقام بها بعض ليال كان يشغلها هو وجماعته بالأذكار والعبادات ، ثم اتخذ ذلك عادة سنوية ، وكان هذا منشأ ذلك المولد الصغير ، والذى يبدو لى أن هذا المولد قد أقيم على وجه العموم للأتباع والأهالى الذين هم من بلاد نائية ، وكانت وسائل السفر لا تمكنهم من إدراك المولد الكبير ،على أن (كلوت بك) يذكر موالد السيد فيقول إنها ثلاثة : المولد الكبير ومولد سيدى عبد العال ومولد الرجبية ، ويؤخذ من هذا أن المولد الصغير إنما أقيم فى الأصل للشيخ عبد العال ، وأنه كان يعرف بهذا إلى زمن متأخر ، ولكن شهرة السيد طغت عليه ، فصار يعتبر ضمن موالده ، ومن يكون

الشيخ عبد العال لولا السيد البدوى ؟ .. وعلى أية حال فان هذا المولد يستمر ثمانية أيام كالمولد الكبير ، ولكنه لا يكون فى مثل فخامته وضخامته وإقبال الناس عليه .

المولد الرجبى :

وأما المولد الرجبى ، ويسمى بمولد الزيارة أيضاً ، فانه ليس بمنسوب إلى شهر رجب كما هو الاعتقاد الشائع ، ولكنه ينسب إلى رجل يسمى رجب العسيلى كان كبيراً للمحلة الكبرى ، وكانت المحلة وقتذاك عاصمة الغربية ، ويقولون إنه أحضر كسوة وعمامة لضريح السيد، وحضر بهما فى موكب كبير ، وجعل من ذلك موعداً لزيارة السيد كل عام ، ووقف من أمواله على هذه الزيارة ، وجرت العادة بذلك على ما هو مقرر فى تقاليدهم . وكان هذا هو الأصل للمولد الرجبى .

ويجرى الاحتفال بهذا المولد فى نطاق ضيق ، فلا تضرب به سرادقات ، ولا يقصد إليه إلا أرباب العوائد ، ويقتصرون على الاحتفال به فى المنازل ، كما يقتصرون على توزيع الكعك والمنين والدقة ؛ ولكنه يستمر كالمولدين السابقين ثمانية أيام .

تواريخ إقامة هذه الموالد :

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن تواريخ إقامة هذه الموالد الثلاثة تستلفت نظر الباحثين فى تاريخ الأديان، فمن الواضح أنها

---

(١) المصدر السابق .

تجرى وفقاً للتقويم القبطى ، أو بصفة عامة وفقاً للسنة الشمسية ، فالمولد الكبير يحدث فى مسرى — أغسطس ، والوسيط فى برمودة مارس — أبريل ، والأصغر فى أمشير فبراير ، ويجب أن نلاحظ أن أعياد الربيع والخريف عند عرب الجاهلية قد تكون أساس تواريخ هذه الموالد ، ولا يفسد هذا الغرض ما يقال من أن المولد الرجبى إنما سمى بذلك نسبة إلى رجل هو الشيخ رجب ، وأن المولد الوسيط له أساس سابق .

والمعنى فى هذا الكلام أن دائرة المعارف الإسلامية ترجح أن تكون تواريخ الموالد الأحمدية هى فى أصلها تواريخ أعياد الربيع والخريف عند عرب الجاهلية ، والحجة فى ذلك أن تواريخ تلك الموالد تجرى على حساب السنة الشمسية كما كان الشأن فى تواريخ تلك الأعياد ، والواقع أن كثيراً من المظاهر التى تبدو فى الموالد الأحمدية وغيرها إنما ترجع إلى أصول قديمة عريقة وبخاصة ما كان سائداً فى أعياد قدماء المصريين كما سنشرحه بعد ، ولكن هذه المسألة بالذات ، أعنى تواريخ تلك الموالد ، إنما ترجع إلى ترقب وقت الفراغ عند طبقات الشعب المصرى فى الريف ، وقد كان هذا الفراغ لا يتحقق إلا فى الفترات بين المواسم الزراعية ، حيث يكون الفلاح قد فرغ من حصاد محصوله ، وتيسر له مع الفراغ المال ، ومن المعروف أن المواسم الزراعية إنما تجرى على التاريخ الشمسى . يقول على مبارك باشا « وقد قررت مواعيد هذه الموالد باعتبار الشهور القبطية لا العربية

لكى لا يتغير كل منها عن وقته من فصول السنة رعاية لأوقات النيل والرى ، حتى لا يقع المولد فى وقت قلة الماء بتلك الجهة أو كثرته وانغمار الأرض به للرى ، ولمثل هذه الأسباب قدمت وأخرت مواعيدها فى بعض الأوقات بتنبيهات من الحكومة رعاية لمقتضيات المصالح والأحوال » .

هذا وقد أصبحت مواعد الموالد الأحمدية تحدد حسب الظروف القائمة ، إذ تجتمع لذلك لجنة رسمية فى مدينة طنطا ، وبعد أن تتخذ قرارها فى هذا الشأن تبلغه إلى الجهة المختصة فى الحكومة ، وهذه تصرح باقامة المولد فى الموعد المحدد رسمياً ، إلا إذا كان هناك مرض منتشر يخشى استفحال الخطر به ، وتفشى العدوى من تجمهر الناس فيه ، فانها إذ ذاك تؤجله حتى تسمح الظروف ويزول ذلك المانع .

إنكار الفقهاء لما يقع فى المولد :

ويؤخذ من رواية لابن إياس أن المولد الأحمدى قد أهمل أمره فترة من الوقت على عهد خلفاء السيد الأولين ، ولكن ابن إياس لم يشرح لنا السبب فى ذلك ، والظاهر أن هذا كان مرجعه إلى ما وقع بين أولئك الخلفاء من خلاف عنيف أدى إلى القتل فى بعض الأحيان ، وعلى أية حال فان الزمن لم يستمر طويلا حتى أعيد الاحتفال بهذا المولد ، وأقبل الناس عليه من شتى الجهات ، وصار موسماً شعبياً يجد فيه أبناء مصر كل ما يشبع عواطفهم وغرائزهم ، ويظهر أنه

(١) طبقات الشعرانى ج ٢

صار كذلك مباءة لاقتراف الآثام وإتيان المناكر من غير تحرج ، إذ يقبل الناس على ذلك وهم يحسبون أن السيد سيحمل هذا عنهم ، حتى الدراويش والفقراء أنفسهم كانوا يتوغلون فى المنكرات بهذا الاعتقاد ، فكانوا فى أيام المولد ينهبون متاع الناس ويأكلون أموالهم بالباطل ، وكانوا يحتجون لذلك بحجة تندرج فى قياس منطقى ، وهى أن بلاد الغربية كلها بلاد السيد البدوى ، ونحن فقراء السيد ودراويشه ، فكل ما نأخذه من بلاده فهو حلال لنا ، وهكذا يكون منطق الدروشة فى التحليل والتحريم ...

هذه الحال كانت لابد أن تثير غضب الفقهاء ورجال الشرع ، فنهضوا لاستنكار هذه الأمور ، وكثيراً ما صدرت الفتاوى منهم بتحريم هذه المآثم التى تقع فى الموالد ، بل بتحريم الموالد دفعة واحدة نظراً لما تؤدى إليه من الأضرار بالدين والعقيدة ، وما يقع فيها من المنكرات خفية وجهرة ، ومن هنا كان لابد أن ينهض الأتباع والدراويش للدفاع عن كيانهم ، وعن إقامة تلك الموالد التى هى مجال نفحاتهم وبركاتهم ، ومورد رزق وكسب لهم .

دفاع الصوفية :

ويمكننا أن نتبين وجهة هذا الدفاع فيما يحكيه الشعرانى عن نفسه وسبب حضوره للمولد الأحمدى كل عام إذ يقول : وسبب حضورى مولده كل سنة أن شيخى العارف بالله تعالى محمد الشناوى رضى الله عنه أحد أعيان بيته رحمه الله كان قد أخذ على العهد فى القبة تجاه

وجه سيدى أحمد رضى الله عنه ، وسلمنى إليه بيده ، فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدى وقال سيدى : يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك ، فسمعت سيدى أحمد رضى الله عنه من القبر يقول نعم ، ثم إنى رأيته بمصر مرة أخرى هو وسيدى عبد العال وهو يقول : زرنا بطندتا ونحن نطبخ لك ملوخية ضيافتك ، فسافرت فأضافنى غالب أهلها وجماعة المقام ذلك اليوم كلهم بطبيخ الملوخية ، ثم رأيته بعد ذلك وقد أوقفنى على جسر قحافة تجاه طندتا فوجدته سوراً محيطاً وقال : قف هنا .. أدخل على من شئت وامنع من شئت . ولما دخلت بزوجتى فاطمة أم عبد الرحمن وهى بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها ، فجاءنى وأخذنى وهى معى وفرش لى فرشاً فوق ركن القبة التى على يسار الداخل ، وطبخ لى حلوى ودعا الأحياء والأموات إليه ، وقال أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة (١) .

ثم تمضى الشعرانى فى هذا اللون الطريف من التخريف فيقول : وتخلفت عن ميعاد حضورى للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ،

---

(١) استدل جولد سهير بهذه الحكاية الأخيرة التى رواها الشعرانى على أن التوسل بأحمد البدوى قد خالطته مظاهر تنافى الأخلاق ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن الدعوة إلى إزالة البكارة أمام الضريح وما تبعها من تنفيذ تطابق تمام المطابقة روح أحمد وطبيعة التوسل به فى حين أنها تتعارض تماما مع طبيعة الشعرانى وشعوره الرقيق فيما يتصل بالمسائل الجنسية . وفى الحق أن هذا تخليط من الذى كتب مادة ، أحمد البدوى ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، فليس لأحمد دخل فى هذا التخليط الذى أورده الشعرانى وعام به فى طبيخ الملوخية

وكان هناك بعض الأولياء فأخبرنى أن سيدى أحمد رضى الله عنه كان فى ذلك اليوم يرفع الستر عن الضريح ويقول : أبطأ عبدالوهاب ما جاء ... وأردت التخلف سنة من السنين فرأيت سيدى أحمد رضى الله عنه ومعه جريدة خضراء وهو يدعو الناس من سائر الأقطار والناس خلفه . وعن يمينه وشماله أمم لا يحصون ، فمر على وأنا بمصر فقال : أما تذهب ؟ .. فقلت : بى وجع ، فقال : الوجع لا يمنع المحب ، ثم أرانى خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم ، الأحياء والأموات من الشيوخ ، وألزمنى بأكفانهم وهم يمشون ويزحفون معه ويحضرون المولد، ثم أرانى جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الإفرنج مقيدين مغلولين يزحفون على مقاعدهم فقال : أنظر إلى هؤلاء فى هذا الحال ولا يتخلفون، فقوى عزمى على الحضور فقلت له : إن شاء الله نحضر ، فقال : لابد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به ، فأخبرت بذلك سيدى الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه، فقال سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم وسيدى أحمد رضى الله عنه يدعو الناس بنفسه إلى الحضور ، ثم قال : إن سيدى الشيخ محمد السروى رضى الله عنه شيخى تخلف سنة عن حضور المولد فعاتبه سيدى أحمد رضى الله عنه وقال : موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء رضى الله عنهم وأنت لا تحضره؟! ..فخرج الشيخ محمد فوجد

الناس راجعين وفات الاجتماع ، فكان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه .. وقد اجتمعت مرة أنا وأخى أبو العباس الحريثى رحمه الله تعالى بولى من أولياء الهند بمصر المحروسة فقال رضى الله عنه : ضيفونى فانى غريب ، وكان معه عشرة أنفس ، فصنعت له فطيراً وعسلا ، فأكل ، فقلت له : من أى البلاد .. فقال : من الهند ، فقلت : ما حاجتك فى مصر ؟ .. فقال : حضرنا مولد سيدى أحمد رضى الله عنه ، فقلت له : متى خرجت من الهند ؟ .. قال : خرجنا يوم الثلاثاء ، فنمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وليلة الخميس اعند الشيخ عبد القادر رضى الله عنه ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدى أحمد رضى الله عنه بطندتا ، فتعجبنا من ذلك فقال : الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل ، فقلنا له : من عرفكم بسيدى أحمد رضى الله عنه فى بلاد الهند ؟ فقال : يا للعجب .. إن أطفالنا الصغار لا يحلفون إلا ببركة سيدى أحمد ، وهو من أعظم أيمانهم ، وهل أحد يجهل سيدى أحمد رضى الله عنه وأولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون مولده ...

وبعد أن يفرغ الشعرانى كل ما فى جعبته من النوادر عن حضور المولد يواجه الفقهاء والمنكرين لإقامة هذا المولد وما يحدث فيه من المآثم بنفس الأسلوب فيقول : « وأخبرنى شيخاً الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه أن شخصاً أنكر حضور مولد سيدى أحمد فسلب

الإيمان ، فلم تكن فيه شعره تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه فقال : بشرط ألا تعود ، فقال : نعم .. فرد عليه ثوب إيمانه ، ثم قال له وماذا تنكر علينا ؟ قال : اختلاط الرجال والنساء ، فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه : ذلك يقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه ، ثم قال : وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته ، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار وأحميهم من بعضهم بعضاً أفيعجزنى الله عن حماية من يحضر مولدى ؟ .. وحكى لى شيخنا أيضاً أن سيدى الشيخ أبو الغيث ابن كتيلة أحد العلماء بالمحلة الكبرى وأحد الصالحين بها ، كان بمصر فجاء إلى بولاق ، فوجد الناس مهتمين بأمر المولد والنزول فى المراكب فأنكر ذلك وقال : هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم صلى الله عليه وسلم مثل اهتمامهم بأحمد البدوى ، فقال له شخص : سيدى أحمد البدوى ولى عظيم ، فقال : فى هذا المجلس من هو أعلى منه مقاماً ، ثم عزم عليه شخص فأطعمه سمكاً ، فدخلت حلقه شوكة وتصلبت ، فلم يقدروا على نزولها بدهن عطاس ولا بحيلة من الحيل ، وورمت رقبته حتى صارت كخلية النحل ؛ وبقى تسعة شهور وهو لا يلتذ بطعام ولا شراب ولا منام ، وأنساه الله تعالى السبب فبعد تسعة شهور ذكره الله بالسبب فقال : احملونى إلى قبة سيدى أحمد رضى الله عنه ، فأدخلوه ، فشرع يقرأ سورة يس ، فعطس عطسة شديدة فخرجت الشوكة مغمسة دماً ،

فقال : تبت إلى الله يا سيدى أحمد ، وقد ذهب الوجع والورم من ساعته .. وأنكر ابن الشيخ خليفة بناحية إبيار بالغربية حضور أهل بلده إلى المولد ، فوعظه شيخنا الشيخ محمد الشناوى فلم يرجع ، فاشتكاه لسيدى أحمد فقال : ستطلع له حبة ترعى فمه ولسانه ، فطلعت من ذلك اليوم وأتلفت وجهه ومات بها .. ووقع ابن اللبان فى حق سيدى أحمد رضى الله عنه فسلب القرآن والعلم والإيمان ، فأخذ يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد منهم أن يدخل فى أمره ، فدلوه على سيدى ياقوت العرشى ، فمضى إلى سيدى أحمد رضى الله عنه وكلمه فى القبر ، وقال له : أنت أبو الفتيان ، فرد على هذا المسكين رأس ماله ، فقال بشرط التوبة ، فتاب ورد عليه رأسماله ، وهذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان فى سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه ، وقد زوجه سيدى ياقوت ابنته ودفن تحت رجليها بالقرافة رحمه الله تعالى .. » .

ويظهر أن هذا الأسلوب الطلى فى التخريف لم يكن أسلوب الشعرانى وحده ، بل أسلوب الدراويش والمريدين للسيد البدوى ؛ فقد روى الشيخ البيومى صاحب المقام المعروف بالحسينية وكان من أتباع السيد فيما حكاه عنه الجبرتى طرائف من هذا النوع فقال : « وأخذنى الشيخ الكردى وأوصلنى إلى مكة ، وأرانيها عياناً ، ودخلت على السيد أحمد البدوى وعنده النبى صلى الله عليه وسلم فحكم فى ، وأنا أستغيث بالنبى ، وكان سبب ذلك ، التردد فى نزولى مولده ، فأغاثنى الله بعد ذلك ببركة النبى صلى الله عليه وسلم ،

وكان قد ألبسنى بيده الزى الأحمر مرتين : مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح » ..

وأنت قد تضحك من هذا التخريف ، وقد يسوءك صنيع هؤلاء الدراويش إذ يجعلون النبى صلوات الله عليه تابعاً للسيد ، فينتقل إلى ضريحه ، ويتشفع لديه فى الرأفة بأتباعه ، وقد تعجب من تخريف أولئك الناس إذ يسلبون الرجل إيمانه وإسلامه لأنه أنكر المنكرات فى مولد السيد ، وكأن مولد السيد أصل من أصول الإسلام ، وهو لو أنكر السيد نفسه لما نال هذا من إسلامه ، ولكن لا يخفى عليك أن هذا الأسلوب الذى اصطنعه أولئك الدراويش وتجار الخرافات أشد ما يكون تأثيراً على عواطف العامة وسيطرة على مشاعرهم ، وهكذا كان الأمر ، فان أولئك الدراويش قد كسبوا المعركة من الفقهاء ، واستطاعوا بهذه الدعايات الخرافية الأسطورية أن يجعلوا للمولد الأحمدى قداسة فى النفوس كأنها قداسة الحج إلى بيت الله الحرام ، ومن الذى لا يتلهف على حضور المولد الأحمدى بعد أن يعلم أنه — كما يزعم الشعرانى — يكون مجمعاً للنبى صلى الله عليه وسلم ولسائر الأنبياء والأولياء والصالحين من مشارق الأرض ومغاربها ومن وراء البحار والجبال ؟ ومن الذى يجرؤ على أن يتطاول فينكر ما يقع فى المولد الأحمدى من المآثم والمناكر ، أو يجحد ما يكون فيه من النفحات والبركات ، بعد أن يسمع بقصة « السبعين الأسودين » ، وحكاية « الشوكة التى اعترضت فى حلق العالم تسعة شهور » ، وأسطورة « الفقيه الذى سلب الفقه والعلم والإيمان بالله » . إلى آخر ما يهرف به الشعرانى وأمثاله ، مما أوردناه عليك ؟

إن العامة لا يحتملون الجدل المنطقى ، ولا يستسيغون المناقشات العقلية . وإنما يستهويهم التهويل ، وسرد النوادر المغرقة فى الغرابة ، وتصوير العواطف المكبوتة فى نفوسهم ، وتقريب الأمانى المنطوية بين جوانحهم ، ومن ثم فشل العلماء والفقهاء حيث نجح الدراويش والمريدون ، وما للعامة وأولئك الفقهاء المتعسفين الذين يشقون عليهم ويطلبون منهم أن يصعدوا بآمالهم نحو السماء ، وهم يرون الدراويش يقربون ذلك منهم جداً فلا يكلفونهم فى هذا السبيل إلا رحلة قصيرة إلى ساحة المولد الأحمدى ؟ ثم ما للعامة وأولئك الفقهاء الذين ينظرونهم بالثواب على ما يعملون ويؤدون إلى يوم القيامة مع أن الدراويش يمثلون لهم إدراك ذلك قريباً جداً فى نفحات السيد ، وفيوضاته التى يغدقها على رواده القاصدين إليه ؟ .

أجل .. ؟ لقد نجح الدراويش ، وكان لهذا الأسلوب الذى اصطنعوه تأثير كبير فى عقلية الشعب لا يزال ماثلا إلى اليوم ، بل لا يزال قوياً عارماً فى سيطرته على تلك العقلية والاتجاه بعواطف الجماهير .. فمئات الألوف من أتباع السيد فى القرى والريف يرهبون التخلف عن مولده ، ويخشون إن هم قصروا فى عادة من عاداتهم نحوه ، أو أبطأوا فى أداء النذور له أن يبطش بهم ويغضب عليهم ، وإننا لنعرف من هؤلاء من يقترضون بالربا للقيام بالعادة فى زيارة السيد وحضور مولده ، لأنه « العطاب » الذى لا يتغاضى عن حقوقه ولا يصبر على المدينين له ، ومن الأمثال المشهورة بينهم « قطع الورايد

ولا قطع العوايد » ، أى أنهم يعتبرون قطع الأعناق أخف من قطع ما ارتبطوا به فى أداء العادات للشيوخ وغير الشيوخ .. ولله فى خلقه شئون .

رأى على مبارك باشا :

ومهما يكن من شيء فأن النزاع ظل قائماً بين الفقهاء وأتباع السيد حول ما يقع فى هذه الموالد ، وظل العلماء والعقلاء من رجال الشرع ينكرون تلك المظاهر التى تحمل على الدين ، وتلك المآثم التى تقترف على حساب السيد وجاهه العريض ؛ وفى العصر الأخير تناول على مبارك باشا هذه المسألة بالمناقشة ؛ وأعرب عن وجهة نظره فيها فقال وهو بسبيل الحديث عن الموالد الأحمدية : « وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم على هذه الموالد ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى إبطالها لذلك ، ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرة إلا تعطيل من يكون بها من الناس عن أشغالهم ومصالحهم المعتادة لكفى .. والواقع أن من نظر فى الشيء من جهة واحدة من جهاته ولم يستقص جميع أحواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم أو المدح من تلك الجهة . ولو نظر إلى غيرها تغير حكمه وهكذا حال من تكلم فى مولد السيد ، فانه نظر إلى شيء مما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره ، فتكلم بحسبه ، ولو أمعن النظر ، وأجال الفكرة ، واستعمل الروّية لقال غير ما قال ، فان مولد السيد وإن كان قد يحصل بعض الناس الذين يجتمعون فيه بعض أمور تخالف الشريعة

الشريعة كما لا ينكر ، ولكن لا يحكم على الشيء فى ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما إذا كانت له أحوال كثيرة ، وأنت تعلم أن كل وقت من الأوقات ، وكل بلد من البلاد ، وكل جيل من الأجيال ، لا يخلو من أن يقع فيه بعض أمور تخالف الشرع والطبع ، ولا يحكم على عموم الناس أو البلد أو الوقت بحكم من يحصل منه ذلك ، وليس ما يقع من هذه الأمور المخالفة للشرع مخصوصاً بمولد السيد ، فانها تقع فى كل موضع كما قلنا ، وليس المولد مقصوراً عليها ، فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر من الخيرات والأذكار والعبادات والحسنات والمبرات ، فلما نغمض عن الحسنة ونقصر أنظارنا على السيئة ؟ .. »

ثم يأخذ على مبارك باشا فى شرح ما يكون فى هذا المولد من المزايا فيقول : « وفى هذا المولد ما لا يخفى على أحد من المزايا والمنافع ، كمنفعة من يكترى منهم الدواب أو المراكب أو سكة الحديد للمضى إليه والانصراف عنه ، ومنفعة من يكون فيه من الفراشين والطباخين وغيرهم من أرباب الحرف والصنائع وأصحاب الدور التى تكترى والأشياء التى تشترى ، ثم ما يكون فيه من سعة التجارة ، فانا نرى كثيراً من التجار فى طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون أداء ديونهم وقضاء بعض شئونهم على هذا المولد ، وينتظرون هذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والأخذ والعطاء ، فينتفع البائع بثمن ما يبيعه ، والشارى بما يشتريه منه ، والكثير من

أهل القرى ينتظرونه لشراء بعض مايلزمهم فى أثناء السنة مما لايوجد فى جهاتهم ؛ أو لبيع مايفضل عن حاجتهم من دابة أو محصول زراعتهم أو غير ذلك ، فهو سوق عظيم عمومى كسائر الأسواق العامة التى توجد فى جميع أقاليم الدنيا من البلاد الإسلامية وغيرها ، فهذه هى المزية فى هذا المولد مع غيرها مما ذكرناه وما لم نذكره ؛ فاندفع قول من يقول إنه سبب للتعطيل ، وتبين أن ذلك القول من جملة الأباطيل ، ومن ذهب إلى هذا المولد لالقصد التجارة أو نحوها من المقاصد فلا يخلو من أن ينتفع منه غيره ، فالمنفعة حاصلة على أية حال ، وأما فراغه من أشغاله وبطالته فى أيام يسيرة فلا ضير فيه ولاضرر ؛ فإنه إن كان خلواً من الأشغال فى غير المولد فهو بطال فى ذاته لم يحدث له المولد بطالة ، وإن كان فى غير المولد عاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدح ، فأن له فى المولد فسحة وتغيير هواء وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على أعماله بنشاط جديد ، وشوق مستحدث ، وهمة مقبلة ، ونفس غير كليلة ، فيتعوض بذلك ما ضاع فى أيام المولد ، فإن النفوس البشرية إذا دام عليها الشغل واتصل الكد والعمل يلحقها السأم والكلال والملل ، فلابد من ترويحها فى بعض الأحيان لتعود لحالة نشاطها ، وتسترجع مافقدته من أنسها وانبساطها ، ولذا كان لكل أمة من الأمم وملة من الملل أوقات يستريحون فيها من أشغالهم ويتفرغون لرفاهة بالهم استرجاعاً لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفتورهم ، فلا داعى لتمنى إبطال

هذه الموالد المستلزم إبطال ما يترتب عليها من الفوائد ، وقد أحدثت هذه السكك الحديدية من أسباب السهولة والسرعة والراحة فى المضى إلى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه ، وكان قبلها من يريد المولد يعانى فى الذهاب إليه والإياب ومنه صعوبة ومشقة ، ويقضى فى الطريق يومين فأكثر إذا سار من البر ، وجملة أيام إذا سافر من البحر ، ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد بأيام كثيرة ، حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت البعيد(١) ».

هذا هو رأى على مبارك باشا ، وهو يمثل رأى الطبقة المستنيرة فى الجيل الذى سبقنا ، وأنت ترى أنه يدافع عن إقامة هذا المولد ويبرر ما يقع فيه بحجة تجارية .. لا بحجة دينية ، فنظر إليه على أنه سوق للبيع والشراء ، ومجال نزهة وفسحة وتغيير هواء ، ونسى الجانب الدينى منه ، وكأن المسألة فى أصلها مسألة ولاية وأولياء ، لا مسألة عبادة وقربى إلى الله ، ومن العجيب أن على باشا مبارك يدافع هذا الدفاع التجارى .. عن إقامة المولد الإحمدى مع اعترافه بما يقع فيه من المنكرات والموبقات . ومع تصريحه بأن ما يبدو فى هذه الموالد من المظاهر والعادات إنما هى « فى جملتها أشبه شىء بعادات قدماء المصريين فيما كان يحدث فى موالدهم وأعيادهم(٢) .

والواقع أننا لم نكن ننتظر من على باشا مبارك أكثر من هذا ،

---

(١) علم الدين جـ١ ص ١٦ وما بعدها

(٢) المصدر السابق .

ولا غير هذا، فان المشاعر فى المجتمع المصرى عامة كانت قد أذعنت واستسلمت لما يقع فى هذه الموالد، وقد صار لهذه الموالد من القداسة فى النفوس منزلة لا يجرؤ أحد أن يخرج من دائرتها، أو يتهجم عليها بنقد، حتى كان فقهاء الأزهر وفقهاء المعهد الأحمدى عامة فى مقدمة من يباركون هذه الموالد وينزلون إلى ساحتها ويتصدرون موائدها..

وما أريد أن أطيل فى تفنيد هذه الحال ونقد مظاهرها لأننى أقصد كما قلت فى صدر هذا الكتاب إلى تمثيل حال واقعة لا أكثر ولا أقل. وقد أصبح هذا الذى ذكره على مبارك عن السوق التجارية وفائدة الناس من البيع والشراء ومكاسب السكك الحديدية كلاماً غير ذى موضوع.

المواكب الأحمدية :

والآن ننتقل بك إلى وصف ما يجرى فى الموالد الأحمدية من المواكب والمحافل، وإن أظهر ما يجرى فى ذلك هو ما يكون فى المولد الكبير من المظاهرات والاحتفالات، ثم ما يكون من ركبة الحاكم، وركبة الخليفة، ومشاركة الحكومة والشعب فى إحياء تلك المظاهر التى يحسبونها قربى لأبى فراج قطب الأقطاب، وتقية من غضبه وهو الفارس العطاب.. وأحسب أن ليس فى مصر من لم ير تلك المواكب، أو على الأقل لم يسمع بما يكون من جلبتها واحتشاد الناس لها واهتمام الحكومة بها كل عام، وإنا لنعتمد فى الحديث عن هذه المواكب على وصف «لعالم كبير»(١)، رأيناه وافياً بالقصد

(١) هو وصف جريدة السياسة الأسبوعية بتوقيع «عالم كبير».

وقد تصرفنا فى هذا الوصف بالتقديم والتأخير، والحذف والإضافة حسب ما يقتضيه، ويحتمه إطراد الحديث.

اليوم الأول للمولد :

إذا ما صدر التصريح باقامة المولد الأحمدى الكبير وأعلن ذلك فى كافة البلاد، توافد الناس من شتى الجهات فى الموعد المحدد، فيقيمون الخيام ويضربون السرادقات فى ساحة المولد، ويرضى أصحاب العوائد بدفع أى أجر يطلبه منهم المالكون للأرض لإقامة خيامهم عليها، وتقام الخيام والسرادقات الخاصة بأهل الريف حول ساحة المولد، وفى ضواحى سيجر وكفر الشيخ سليم وما إليها من القرى، وأما الخيام والسرادقات الخاصة بالحكومة وشيوخ الطرق وأرباب العوائد فانها تقام فى الساحة، وتسمى هذه البقعة بالسحابة.

وبالقرب من الساحة تقام سارية خشبية عالية تسمى بالصارى، ويقدر متوسط ما يقام من الخيام عادة فى هذا المولد بنحو خمسة آلاف خيمة.

وفى اليوم الأول للمولد يطوف مأمور البوليس بطنطا فى موكب من الجنود معلناً افتتاح المولد، ويسمى هذا الموكب بركبة الحاكم.

ومن أول ليلة للمولد تقام حلقات الذكر حول الصارى، ويعتبر هذا الصارى جامعة المناكر والمفاسد، وللناس فيه عقائد عجيبة مريبة، فبينما يعتقد بعضهم أن زيارة هذه الخشبة تعادل زيارة السيد البدوى نفسه، إذ يعتقد آخرون أن السيد يجلس فوقها أيام

المولد ليشرف على زواره ويتعرف عليهم ، ويجزم الكثيرون بأن النبي صلوات الله عليه يزور هذه الخشبة فجر يوم الإثنين قياماً بواجب السيد البدوى عليه ، ولن يروعك فى حياتك أسوأ مما تشهد من هول حول هذا الصارى ، إذ يتراكم حوله خليط من الكتل البشرية على حال لا ترضى عاقلا من العقلاء ، ولا متديناً بأى دين ، فيختلط الرجال بالنساء والكبار بالصغار ، ويتحلق حول الصارى كثير من المساليب والحمقى ورواد الفسوق ، وكبار العصاة المجرمين المدمنين للحشيش وما إليه من الكيوف ، ويسمى العامة هؤلاء بالمجاذيب ، ويعتقدون أن لهم عند ربهم ما يشاءون ، وينخرط هؤلاء كل ليلة فى مجالس الذكر يقيمونها حول هذا الصارى وهى أشبه ما تكون بحفلات الرقص الخليع ، ويبدو لى أن حفلات الزار المعروفة التى لا تزال تقام فى المنازل قد أخذت من هذه المناكر التى تقام فى موالد الشيوخ .. ومن نظام الذكر حول الصارى أن يقف فى كل ناحية من النواحى الأربع جاهل يصفق راسماً للذاكرين خطط ضلالتهم ، ويسمى هؤلاء « بالشاويشية » ، ومن الغريب أن الرجال والنساء والأطفال يختلطون فى هذه الحلقات من غير تحرج ، ومن الغريب المحزن أن نجد فى بعض الأحيان وسط هؤلاء المساليب فريقاً من علماء الذين يشاركونهم فى مخازيهم ، ويكونون بعملهم هذا حجة لأولئك الحمقى فيما يصنعون ، ويشتد الزحام حول الصارى ليلة الإثنين من أيام المولد ، كما يشتد الزحام

فى ساحة المولد وفى سرادقاته ، ويكثر تقديم الأطعمة ونحر الذبائح ، إذ يعتقد العامة أن النبي صلوات الله عليه يحضر فى هذه الليلة لزيارة السيد البدوى ويطوف بالصارى ، وفى هذه الليلة يكثرون من حرق البخور ونشر الروائح الطيبة ، فاذا ما تبدى الفجر ارتفعت الأصوات بالتهليل ، وأطلقت النساء الزغاريد ، وتحدث الناس عن رائحة زكية فى الجو ، ويكون ذلك عندهم دلالة على مرور النبى بساحة المولد .. غفر الله لهم .

استقبال الشناوية :

وفى يوم الأربعاء من أسبوع المولد يركب الخليفة فى موكب من الطوائف الأحمدية ، ويخرج إلى قنطرة سمنود حيث كان مدخل مدينة طنطا قديماً ، فيستقبل طائفة الشناوية من أتباع الشيخ الشناوى الذى ولى الخلافة الأحمدية من قبل والذى حدثناك عنه فى الفصل السابق ، ويفد هؤلاء الشناوية فى موكبهم حفاة عراة الرءوس ، ويقصدون فى حالهم هذه إلى ضريح السيد البدوى ، فيطوفون به طواف القدوم على نحو ما يفعل القاصدون لحج بيت الله الحرام ، ويقولون إن هذه كانت سنة الشيخ عبد العال الخليفة الأول فى إستقبالهم وفى وداعهم حين وفدوا للعزاء فى السيد ، وهناك عادة قديمة كانت جارية ولعلها مازالت إلى هذا اليوم ، إذ كان أهالى شبرا بابل من قرى مركز المحلة الكبرى يفدون فى ذلك الوقت ، وهم يحملون كمية كبيرة جداً من السمك ، فيذهبون بها إلى دار الخليفة

ثم يأخذون فى مقابلها ثوراً ويذبحونه فى داره ليأكلوه ، أما الآن فلم يعد أهالى شبرا ولا سواهم يجلبون شيئاً من السمك ، وأما العادة بذبح الثور فلا تزال قائمة ، ولكن يؤخذ هذا الثور من مال وزارة الأوقاف ويذبح بحضور مندوبها .

الليلة الختامية :

وفى يوم الخميس يبلغ المولد غايته من الزحام استعداداً لإحياء الليلة الختامية التى هى ليلة الجمعة ، ويمكن أن تسمى هذه الليلة ليلة الطرب والحظ ، إذ يفد مشاهير المغنين والمنشدين لإحياء تلك الليلة كما يتوافد على المولد رواد السماع والحظوظ من كل فج ، وتبدو الخيام والسرادقات فى أبهى ما تكون زخرفاً وزينة ، وتسطع الأنوار الكهربائية فى الساحة كأشد ما يجب ، وفى هذه الليلة يفد وزير الأوقاف ومعه من معه من رجال الحكومة لشهود تلك الليلة ، وتقيم بلدية طنطا بهذه المناسبة حفلة عشاء فاخرة تدعوا إليها أعيان المديرية وسراتها وذوى الحيثية فيها ، فلا يتأخر أحد منهم عنها إلا بعذر قهرى ، وتمضى الليلة وكأنها مهرجان ضخم ، حتى إذا ما انتهت على خير ما يرجو محبوها ومحبوها أن تنتهى عليه ، إذا بالفلاحين يقوضون خيامهم ، والفراشين يجمعون فرشهم ، والزائرين يشدون رحالهم ، ولكنهم جميعاً ينتظرون بالرحيل حتى يتمتعوا بمشاهدة ركبة الخليفة .

ركبة الخليفة :

فاذا ما أصبح يوم الجمعة الذى هو نهاية أيام المولد خرج صوفية بندر طنطا بأعلامهم وطبولهم إلى دار الخليفة ، فيخرج معهم فى حشد من العامة ، عليهم دروع حديدية صدئة ، وبأيديهم سيوف من الطراز البائد ، وهؤلاء يتصيدهم أتباع الخليفة من شوارع طنطا ، ويحشدونهم فى هذا الموكب حفاة الأقدام عليهم أسمال بالية قذرة ، ويزعمون أنهم سلائل الأسرى المسلمين الذين أنقذهم السيد من بلاد الإفرنج .

يسير موكب الخليفة على هذه الصورة التى قدمناها حتى ينتهى إلى مسجد الشيخ البهى وهو أحد شيوخ الشاذلية من العلماء ، وفى هذا المسجد يؤدى الخليفة وأعوانه فريضة الجمعة ، ثم يستأنف الموكب السير إلى مقام السيد البدوى ؛ وهناك يضع الخليفة تاج السيد — أى عمامته إلى لفها بيديه — على رأسه ، ثم يغطى وجهه بلثام على نحو ما كان يصنع السيد ، ثم يلبس « بشتاً » من الصوف الأحمر كان يلبسه الشيخ عبد العال ، ويبلغ زنة تلك المهمات حوالى نصف قنطار من ليف وصوف ، فاذا ما أتم الخليفة لبسه قرأ الجميع الفاتحة داخل القبة الأحمدية بصوت عال مرتفع ، ثم يركب الخليفة ركبته فيخرج الموكب تتقدمه قوة من الجيش والبوليس ، ثم طوائف الصوفية وبينها الطوائف اللاعبة بالسيوف والدبابيس ، والطوائف الراقصة بالصاجات والمتقلدة بالشهار على زى المخنثين ، وأمام هؤلاء وهؤلاء

دفوفهم وطبولهم ، ثم حضرات سلائل الأسرى بسيوفهم ودروعهم ثم حضرة الخليفة فى بشت عبد العال وقمصانه وتاج السيد البدوى .. وهنا يتفرق الجمع الحاشد ويقول الناس قولتهم المشهورة :
« ركب الخليفة وانفض المولد » .

ما يجرى فى المولد الصغير :

تلك هى الصورة الرائعة التى تجرى عليها المواكب الأحمدية فى المولد الكبير ، وعلى الرغم من أنه قد جدت ألوان كثيرة من ألوان التسلية والترويح عن النفس ، وأصبحت مباهجها قريبة ميسرة لجميع طوائف الشعب بالإذاعة والخيالة ومسارح التمثيل وغيرها . فان حماسة الجماهير لم تخمد فى الإقبال على هذه المواكب والتمتع بمشاهدها والمشاركة فيها . أما ما يجرى من هذه المواكب فى المولد الأحمدى الصغير ، فانه يكون صورة مصغرة لما يجرى فى المولد الكبير ، فلا يركب فيه الخليفة ، ولا يسير به حضرات سلائل الأسرى ، ولا يعتقد الناس أن يحضر فيه النبى لزيارة السيد ... ويكون قوامه غالباً دراويش السيد وأتباعه .

أثر العادات الفرعونية :

ونحن فى الواقع نظلم الحقيقة والتاريخ إذا حملنا كل ما يجرى من هذه المواكب على الدين الإسلامى ، أو حسبناها جميعاً من ابتداع أولئك الدراويش والمريدين . بل إن كثيراً من العادات والتقاليد التى تجرى فى مولد السيد ، وفى موالد الشيوخ بمصر عامة ،

إنما هى – كما أشرنا من قبل – تلفيقات من العقائد المصرية القديمة ، ومما اصطنعه الفاطميون فى مواسمهم واحتفالاتهم ، وإذا كان الباحثون الأجانب الذين عنوا بالحديث عن الموالد وما يجرى فيها قد أرجعوا ذلك إلى عناصر فرعونية ، وإلى ما كان مألوفاً عند قدماء المصريين فى إحتفالاتهم الدينية ، فانهم فى ذلك على حق واضح، ولو أنك رجعت إلى ما كتبه « هيرودوت » وغير « هيرودوت » من المؤرخين عن الاحتفالات المصرية والأعياد القبطية القديمة ، وما كان يجرى فيها من المواكب الحافلة ، ويتخذ من الطقوس والعادات . لتحققت أن الأمر فى هذه الموالد التى نشاهدها اليوم ليس أمر الدين ، ولكنها إحتفالات شعبية ، اختلطت مظاهرها وطقوسها بعواطف الشعب من قديم الزمن ، حتى استقرت فيما وراء الشعور كما يقول علماء النفس ، وأصبحت هذه المظاهر وهى عقائد راسخة لها من القداسة فى نفوسهم ما للشعائر الدينية ، ولها من الدلالة عندهم ما يحسبونه قربى إلى الله ، أو قربى إلى أولئك الشيوخ ، وأنت إذا كنت قد شاهدت ما يجرى فى موالد الشيوخ ، بخاصة الموالد التى تقام فى صعيد مصر ، فلابد أنك رأيتهم يحملون زورقاً نيلياً ويضعونه فى جانب من جوانب المولد وسمعتهم يرددون نشيد « أمونا ... يا أمونا » ، وليس الاحتفاظ بذلك الزورق إلا احتفاظاً بالعادة التى كانت جارية فى مواكب آمون ؛ وليس ذلك النشيد إلا نشيد آمون الدينى ؛ بل أنك إذا شاهدت ما يجرى اليوم فى الموالد

والأعياد المسيحية كعيد أبي جورج مثلا ، أو شاهدت ما يقع من الزائرين لكنائس القديسين ومعابدهم ، وقارنت ذلك بما يجرى فى موالد الشيوخ وما يقع من الناس فى زيارة أضرحتهم . لما رأيت فارقاً بين الوضعين ولا اختلافاً فى المظهرين ، وإنما هى احتفالات ومظاهر شعبية ، يجد الشعب فيها نفسه وينطلق فى رحابها على سجيته ،

الأثر الفاطمى :

فمن عادات المصريين القدماء وتقاليدهم فى أعيادهم كما رأيت ، وكذلك من تقاليد الفاطميين فى إحتفالاتهم ومواسمهم ، تكونت تلك المظاهر التى نشاهدها فى الموالد التى تقام للشيوخ ، ولا يفوتنى هنا أن أنبهك إلى أن ما ترى فى مواكب الصوفية بالموالد من حمل الأعلام والطبول والكاسات ونظام السير ليس إلا صورة لما كان سائداً فى نظم الجند عند الفاطميين .. فمن يشاهد الآن موكباً من مواكب الصوفية فى المولد النبوى أو المولد الأحمدى ، فكأنما يشاهد موكباً من المواكب الدينية والحربية فى الدولة الفاطمية . وقد كان هذا « الصارى » الخشبى الذى يقام فى ساحات الموالد مجمعاً للجند فى الجيش الفاطمى ، بل إن درجات الصوفية الآن من مريد إلى نقيب ، إلى خليفة ، إلى خليفة خلفاء ، إلى نائب .. هى بعينها درجات الجند ومراتبهم عند الفاطميين ، ولا يزال لقب « المقدم » يطلق فى المغرب على خلفاء الشاذلية ، وقد كان هذا اللقب يخلع على رئيس المائة من

الجند فى النظام الفاطمى . وأحسب أن ما يجرى الآن من صنع الحلوى فى الموالد ونحر الذبائح وإقامة الموائد وتوزيع الأطعمة يرجع إلى ما كان يصنعه الفاطميون من هذا القبيل فى مواسمهم واحتفالاتهم فقد كانوا يتفننون فى صنع الألوان المختلفة من ذلك ، ويبذلون منه الشىء الكثير لسائر طبقات الشعب ..

الفصل السابع

نتائج وآثار

والآن ، وقد انتهينا بك إلى هنا ، فعلمت من هو السيد أحمد البدوى فى حياته وشخصيته ، وفى أغراضه ومقاصده ، ثم وقفت على ما كان من اتجاهات أتباعه ودراويشه ، وما بلغوا فى المجتمع المصرى من مكانة وقداسة ، وما صار لخلفائه من سطوة ونفوذ واعتبار رسمى فى الدولة ...

فنحن نعرض عليك فى هذا الفصل ما كان لهذا كله من نتائج وآثار فى الحياة المصرية ،وفى عقلية الشعب المصرى ونظره إلى مطالب الدين والدنيا ، لأن القصد فى هذا الكتاب ليس هو الترجمة للسيد البدوى والكشف عن حقيقته التاريخية فحسب ، وإنما القصد الأول والأهم ، هو أن أكشف لك عن حقيقة تلك العقائد التى تستبد بوجدانات الجماهير الشعبية فى التعلق بسكان الأضرحة والقباب العالية ، وما لهذا من التأثير العميق فى اتجاهات الشعب وتكييف ميوله كما قلت فى مقدمة هذا الكتاب .

والواقع أننا لا يمكننا أن نفهم أهمية السيد أحمد البدوى إذا قصرنا دراستنا على شخصيته وحدها كما تقول دائرة المعارف الإسلامية ، وإنما هذه الأهمية ترجع إلى ما تركز فيه من شتى رغائب معاصريه

وميولهم ، بل رغائب الذين سبقوه وجاءوا من بعده أيضاً ، فكان بهذا عاملا مؤثراً فى المجتمع المصرى من جهة ، ومرآة تنعكس عليها رغبات الشعب المصرى من جهة أخرى ، وإذا قلت الشعب ، فانى أعنى جميع طوائفه وطبقاته ، ولقد ذكر الجبرتى فى أخبار الحملة الفرنسية على مصر أن الجنرال « مينو » وقف بعدد للمصريين ما أداه لهم « نابليون » من الخدمات ، وما كان فى نيته أن يؤديه لهم فقال : « وكذلك كان مراده يا مشايخ ويا علماء أن يسفر الحج الشريف هذه السنة ، ويفتح زيارة طنطا لأجل حفظ مقام السيد أحمد البدوى(١)

فكأن زيارة طنطا وحفظ مقام السيد أحمد البدوى كانت من الأمانى والمطالب التى يتعلق بها المصريون تعلقهم بالسفر إلى الحج ، وكأن زيارة طنطا وحفظ مقام السيد أحمد البدوى كانت من الأمور القومية والرغبات الوطنية التى يقوم عليها الخلاف بين المستعمرين والمستعمرين كما كان الخلاف يقوم بيننا وبين الإنجليز حول الجلاء ووحدة وادى النيل ...

ومن قبل نابليون ، ومن بعد نابليون ، كان السيد أحمد البدوى ولا يزال قبلة للحكام المصريين أنفسهم ، يحجون إليه بالزيارة ، ويقصدون إلى ضريحه بالعمارة ، ويغدقون على أتباعه وفقرائه الأموال الطائلة ، فقد كان السلطان قايتباى كثير الإعجاب به والاعتقاد فيه ، وقد زار ضريحه عام ٨٨٨ هـ ووسع فى مقامه وشيد له المبانى العظيمة

(١) الجبرتى ج٣ص ١٩٥

(٢) ابن إياس ج٢ ودائرة المعارف الإسلامية

وقد كان السلطان قايتباى هذا يعتقد فى الشيوخ والأولياء عامة ، وكان كثير الانجذاب إليهم والإقبال عليهم ، لأنه كما قيل تولى السلطنة بعد أن حصلت له البشارة بذلك من عدد من الأولياء والصالحين (١) .

ويعقد الجبرتى فصلا خاصاً للحديث عن العمارة العظيمة التى أقامها على بك الكبير للسيد أحمد البدوى فيقول : « ومن مآثره العمارة العظيمة بطندتا ، وهى المسجد الجامع ، والقبة التى على مقام سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، والمكاتب والميضاة الكبيرة والحنفيات وكراسى الراحة المتسعة ، والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة ، والقيسارية العظيمة النافذة من الجهتين وما بها من الحوانيت للتجار ، وسميت هناك بالغورية لنزول تجار أهل الغورية بمصر فى حوانيتها أيام مواسم المولد المعتادة لبيع الأقمشة والطرابيش والعصائب ... »(٢) .

حتى فى أيام الحكم العثمانى الذى كان الحكام فيه لا يهمهم شأن من شئون الشعب كانوا يقصدون إلى مقام السيد بالإجلال والتعظيم . ويغدقون على فقرائه ودراويشه من هباتهم ونفحاتهم ، وكانوا يخرجون إلى ذلك من القاهرة إلى طنطا فى مواكب كبيرة فخمة ، ومن ذلك ما ذكره الإسحاقى فى تاريخه من أخبار على باشا الحاكم

(١) أخبار الأول ص ١٤١.

(٢) الجبرتى جـ١ ص ٢٨٥.

التركى ومآثره من أنه « قصد زيارة الشريف العلوى السيد أحمد البدوى ، ونزل فى الموكب إلى طنطا فزاره ، وأحسن إلى فقراء المقام الأحمدى ... »(١) .

ولماذا نرجع إلى الوراء بعيداً ؟ .. ألسنا نرى فى هذه الأيام الحكام والوزراء وكبار رجال الدولة يقصدون إلى مقام السيد لتلمس البركات والنفحات وبذل الرعاية لضريحه ولأتباعه، وكأنهم بهذا يؤدون قسطاً مما عليهم من الواجب نحو الشعب ؟ ..

بلى، وأنت إذا رجعت إلى تلك الحبوس والأوقاف الكبيرة التى وقفها الأغنياء والأثرياء على المقام الأحمدى من أطيان وعقارات وأموال ، وإذا ما رجعت إلى ما كان يحصيه صندوق النذور ، وما لا يزال يحصيه إلى اليوم من العطايا والهبات التى ألزم المصريون بها أنفسهم قربى للسيد ، وتلمساً لقضاء حوائجهم ببركاته ، أقول إنك إذا ما رجعت إلى هذا كله وتأملته ونظرت فيه ، فانك ستتبين فيه عواطف المصريين ورغباتهم ، وستقف على مدى ما لديهم من الآمال التى تتركز حول السيد وتنعكس على عقيدتهم فى نفحاته وبركاته ، إذ أن المظاهر المادية العظيمة، والطقوس والمراسيم الفخمة التى تقام باسم الدين ليست إلا عواطف ثائرة يعبر عنها الإنسان يبذل المال ، أو بتشييد المبانى ، أو باقامة الاحتفالات ، فهذه المآذن العالية التى نراها ماثلة أمامنا ، وهذه القباب الشامخة الفخمة التى نشاهدها

(١) أخبار الأول ص ١٦٦

مضروبة على الشيوخ المعتقدين ، إنما هى فى الواقع تعبير عن المشاعر الكامنة فى النفوس . والعواطف الفياضة التى تختلج بين الجوانح : ذلك لأن صاحب العاطفة الدينية الشديدة — كما يقول طاغور — لا يقنع من عبادة الله بكل ما يستطيعه من العناية فى عبادته ، ولكن شخصيته الدينية تفيض فيضها فتثور للتعبير عن نفسها . ومن ثم كانت العلة فى إقامة ما نرى من الهياكل الفخمة : والاحتفالات الدينية العظيمة فهى فيض التدين . وإن خالفت فى مظاهرها وبواعثها مفهوم الدين

على هذا الاعتبار كان السيد ملتقى رغبات المصريين وآمالهم ، وكان اعتقاد المصريين فيه وتقديسهم له صورة صادقة لما يسيطر على نفوسهم ويتجه بعواطفهم ، وإلى هذا الاعتبار ترجع أهميته أمام الباحث ، لأنه يرى فيه جزءاً من شخصية الشعب المصرى ، وصورة لعواطف هذا الشعب واتجاهاته ورغباته ، وعلى هذا فنحن فى هذا الفصل إنما نقصد إلى بيان ما كان لتقديس المصريين والتفافهم حول أتباعه ودراويشه وإقامة الموالد والاحتفالات من تأثير فى المجتمع المصرى ، وتوجيه الحياة التى ظل يحياها هذا المجتمع عدة قرون من التاريخ .

وأستطيع أن أقول لك إن تأثير السيد — بالاعتبار الذى أشرنا إليه — فى حياة الشعب المصرى لم يقف عند ناحية واحدة ، ولكنه شمل جميع النواحى الدينية والاجتماعية والفكرية والفنية ، وما إلى ذلك من النواحى التى تتصل بعواطف العشب ومداركه ، غير أننا

نظلم الحقيقة إذا جعلنا كل هذا التأثير من نصيب السيد وحده ، فانه تأثير يشاركه فيه غيره ، ويرجع إلى اعتقاد المصريين العام وتهالكهم على عتبات الشيوخ وسكان الأضرحة ، غير أن السيد يحمل من هذا القسط الأكبر والنصيب الأوفر بوصفه قطب الأقطاب ، ولأنه أظهر شخصية بين أولئك الشيوخ تتمثل فيها رغبات المصريين وتهفو إليها ميولهم ، وعلى هذا فنحن نعرض عليك مظاهر هذا التأثير بوجه عام ، على أننا سنلاحظ فى أطواء ذلك ما كان للسيد من تأثير فى هذا بوجه خاص .

الناحية الدينية :

وأقصد بالناحية الدينية هنا الشعور الدينى العام الذى يسيطر على المجتمع ويوجهه فى الحياة ، ذلك لأن المشاعر الدينية هى التى تقود الجماعات لا الدين كما يقول جوستاف لوبون ، أما تأثير الناحية الدينية الفقهية بصنيع المتصوفة والدراويش فقد شرحته لك فى مقدمة هذا الكتاب ، وبينت لك مبلغه ومداه ، وما أريد أن أعيد القول فيه .

وأنت إذا كنت قد رأيت ما يجرى من العامة وأشباه العامة ، بل ، ومن كثير من المتعلمين والمثقفين عند أضرحة الأولياء وفى مواكب الشيوخ واحتفالاتهم ، وإذا كنت قد وقفت على النزعات التى تسيطر على نفوس الجماهير وخاصة فى القرى والريف وما يتوجهون به

إلى أولئك المشايخ من الابتهالات ، ويبذلونه من النذور والقربات ، أقول : إذا كنت قد رأيت هذا ووقفت عليه ، فأنت لست فى حاجة لأن أصور لك مدى هذا الشعور ومدى تأثيره فى حياة المجتمع المصرى ، وقصارى ما أقوله لك فى هذا هو أن المتصوفة والدراويش قد استطاعوا أن يكيفوا الشعور الدينى فى هذا المجتمع على هواهم ، وأن يصبغوا الحياة الدينية بصبغتهم ، حتى غاضت سماحة التعاليم الإسلامية فيما أذاعوا من الترهات والتلفيقات ، وما أحدثوا للناس من خرافات وأساطير زعموها مظهر الإخلاص فى الدين والقربى إلى الله ...

حقاً لقد أفلح أولئك المتصوفة والدراويش فى أن جذبوا إليهم القلوب والأبصار ، وأن جعلوا أنفسهم مركز الدائرة وأقطابها للاعتقاد الدينى عند العامة ، ومن ثم كان الاعتقاد فى كرامات الشيوخ ومنافعهم أقوى مظهر يسود الحياة الدينية للبيئات الشعبية ، بل للمجتمع بأسره ، وإنك لتجد الرجل يقتل ويسرق ويفجر ولا يؤدى فرضاً من فروض الله ولكنه يزور الشيوخ ويتلمس بركاتهم ويؤدى لهم النذور والقربات ، وهو بهذا يحسب أنه قد أبرأ ذمته، وأدى كل ما عليه من حق الدين .. أو على الأقل أدى ما يبرر محو سيئاته وغفران ذنوبه ..

قوى هذا الشعور واشتد فى المجتمع المصرى على مدى السنين ، حتى لم يعد فى مقدور أية قوة أن تصده وتقف فى طريقه ، وأنى

لأذكر فى هذه المناسبة أن أستاذنا (١) فى التاريخ كان يدرس لنا تاريخ إخناتون ، وكان يعلل لإخفاق ذلك الملك المصرى القديم فى إقامة ديانته التى أراد بها أن يوجه أنظار المصريين إلى عبادة الشمس ، أو عبادة التوحيد فقال لأن إخناتون لم يستطع أن يهدم العقائد القديمة ، وأن يجعل من ديانته عقيدة تتصل بنفوس الشعب ، ولا يخفى أن هدم العقائد القديمة أمر لا يتأتى عنوة وإلا أدى ذلك إلى الثورة وإراقة الدماء ، فمثلا لو أن الحكومة المصرية أصدرت بياناً تقول فيه إن السيد البدوى ليس ولياً ، وإن أتباعه دجالون مخرفون ، وإنها لهذا قررت إبطال موالده وما يقام له من مراسيم ، فاننا لا نلبث أن نرى أتباع السيد وهم آلاف مؤلفة يقومون فى ثورة عنيفة ويسيرون فى مظاهرات حاشدة وهم يهتفون : تسقط الحكومة الكافرة ، نموت ويحيا السيد البدوى ، مع أن ما صنعته الحكومة لا يمس الدين الإسلامى من قريب ولا من بعيد ...

وهذا الذى ذكره الأستاذ الفاضل على سبيل التمثيل قد وقع فعلا وكان نتيجته ما قدر الأستاذ فى فرضه وتمثيله ، فقد حكى الجبرتى فى حوادث سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف واقعة أشبه بهذا إذ قال : « وفى رمضان جلس رجل واعظ يعظ الناس بجامع المؤيد ، فكثر عليه الجمع وازدحم بهم المسجد ، وكان أكثرهم من الأتراك .

(١) هو أستاذنا وصديقنا الاستاذ عبد العزيز عبد الحق ، وأنى لأعترف بما لهذا الأستاذ الفاضل على من فضل التوجيه وأنا فى بداية الطريق .

ثم انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبورهم وتقبيل أعتابهم ، وقال : إن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى إبطاله ، وذكر أيضاً قول الشعرانى فى طبقاته : « إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ .. فقال : إن هذا لا يجوز ، وإن الأنبياء لا تطلع على اللوح المحفوظ ، فضلا عن الأولياء ، وأنه لا يجوز بناء القباب على أضرحة الأولياء والتكايا ، ويجب هدم ذلك ، وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان وأنكره .

فلما سمع حزبه ذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة وهم ينادون أين الأولياء ؟ .. فذهب بعض الناس إلى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ ، وكتبوا فتوى أجاب عنها الشيخ أحمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، وأن إنكار ذلك الواعظ إطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ، ويجب على الحاكم زجره عن ذلك ، فأخذ بعض الناس الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه ، فلما قرأها غضب وقال : يا أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم ، وأنى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى العسكر ، فهل منكم من يساعدنى على ذلك ، وينصر الحق ؟ ..

فقال له الجماعة نحن معك ولا نفارقك .

فنزل عن الكرسى واجتمع عليه من العامة زيادة عن ألف نفس ،

ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى ، فانزعج القاضى ، وسألهم عن مرادهم ، فقدموا له الفتوى ، وطلب الواعظ منه إحضار المفتين والبحث معهم .. فقال فرقوا هذه الجموع ، ثم نحضرهم ونسمع دعواكم ، فقالوا : ما تقول فى هذه الفتوى ؟ وأطلعوه على فتوى علماء الأزهر قل هى باطلة ، فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة ببطلانها ، فقال : إن الوقت قد ضاق والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم وخرج الترجمان فقال لهم ذلك فضربوه واختفى القاضى ، فما وسع النائب إلا أن كتب لهم حجة حسب مرادهم .. ثم اجتمع الناس وقت الظهر بالمؤيد لسماع الوعظ على عادتهم فلم يحضر لهم الواعظ . فأخذوا يتساءلون عن المانع من الحضور فقال بعضهم أظن أن القاضى منعه من الوعظ ، فقام رجل منهم وقال : أيها الناس .. من أراد أن ينصر الحق فليقم معى فتبعه الجم الغفير ، فمضى بهم .. وهكذا خرجوا فى مظاهرة كبيرة حتى وصلوا إلى مكان القاضى وأخذوه معهم ، ثم توجهوا إلى الديوان فاضطر الوالى أن يحضر لهم الواعظ ، فأخذوه إلى جامع المؤيد ، وأصعدوه على الكرسى ، فصار يعظهم ويحضهم على الانتصار للدين وقمع الدجالين ، ولكن الوالى والحكام كانوا قد وضعوا الترتيبات العسكرية لقمع هذه الثورة ، وكان أن نفى الواعظ من البلد ، وأخذ الجنود يطاردون أتباعه فضربوا بعضهم ونفوا بعضهم وسكنت الفتنة كما يقول الجبرتى(١) .

---

(١) الجبرتى ج١ ص ٤٩ وما بعدها

فأنت ترى من هذه الواقعة التى رواها الجبرتى كيف قامت الثورة،وأوشك خطرها أن يهدد كيان الدولة من جراء كلمة قالها واعظ فى إنكار كرامات الأولياء،واستنكار ما يقع من العامة فى تعظيمهم وتمجيدهم والتوجه إليهم من دون الله ، وليس ذلك إلا مظهراً من مظاهر الشعور الذى تغلغل فى روح المجتمع المصرى ، واستغرق وجداناته فى التعلق بسكان الأضرحة وأرباب المشيخة .

على أن هذا الشعور لم يبق مهذباً راقياً ، فقد كان فى كثير من الأحيان يتدلى إلى أسفل الدركات ، ويتجاوز الاعتقاد فى أشخاص أولئك الشيوخ والدراويش إلى التعلق بكل ما يتصل بهم وينسب إليهم ولو كان أتفه الأشياء،ويظهر أن السيد البدوى كان أقوى نفوذاً فى هذه الناحية ، فاننا نجد العامة يكثرون من القسم بحياته ويحرصون عند زيارته على حمل التراب من ضريحه إلى ذويهم ، حتى لقد كان بعض الماكرين إلى عهد قريب يدربون بعض « العجول » ويسمونها عجول السيد البدوى،وينطلقون بها فى البلاد ويتركونها تدخل الدور وتقتحم المنازل كما دربوها وعودوها ، ثم يزعمون للعامة أنها مباركة بفضل مدد السيد ، فكان الناس لا يمسونها بسوء ، بل لقد كانوا يتمسحون بها ، ويغدقون على أصحابها الهبات والنفحات ، وهكذا عاد المصريون إلى عبادة « العجل » بفضل بركات السيد .

لا شك أن هذا الشعور كان له أسوأ الأثر فى المجتمع المصرى ، وفى الإضرار بالعقيدة الإسلامية الأصيلة لأنه ملأ النفوس بالإذعان

والاستسلام والاستغراق فى التوكل وحمل كل شىء على القضاء والقدر ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وتفوض التصرف فى كل شأن من الشئون إلى أولئك الدراويش والشيوخ والاعتقاد فى قدرتهم على دفع كل مكروه مهما كان مستحكماً ، وجلب كل خير مهما كان عزيزاً ، فالعامل لا يعمل ، والتاجر لا يسعى ، والزارع لا يهتم بزرعه ، والمريض لا يعنى بمرضه ، والمظلوم لا يحاول رد الظلم عن نفسه ، وكلهم يعتقدون أن حاجاتهم ستقضى ببركات الأولياء ، وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب عليهم فلا حاجة للتعب والنصب ..

هذه كلها إتجاهات ونزعات لا نزال نلمسها ونراها واضحة فى المجتمع المصرى ، وبخاصة فى ريف مصر وقراها ، فأولئك الفلاحون البائسون يجعلون للأولياء والشيوخ نصيباً فى دوابهم وفى مزروعاتهم وكل ما ينالهم من خير.. ويلزمون أنفسهم بتأدية العوائد لهم من الشموع والأطعمة ، وقراءة الخواتم وإقامة الحضرات ، مع أنهم قد يكونون فى أشد الحاجة إلى ما يبذلون فى هذا ، بل إن فيهم من يرهن متاعه أو يقترض بالربا ليتمكن من تأدية هذه الواجبات التى يلزم بها نفسه فى مواعيدها ، وكل هذا يحمل على العقيدة الدينية لذلك الشعور المستغرق الذى خلقه أرباب الدروشة والمشيخة ،ويبدو لى أن هذه الاتجاهات والاعتقادات ستظل قائمة جارية بين عامة الشعب المصرى مادام الاعتقاد فى بركات الشيوخ تاماً ، ومادامت تلك القباب العالية تملأ النفوس بالرهبة والخشوع .

المناهضة للإصلاح :

ولم يقف تأثير هذا الشعور عند الانحطاط والتدلى بالعقيدة الإسلامية على ما رأيت ، بل إنه كذلك كان يعترض كل طريق للإصلاح ، ويناهض المفكرين النابهين الذين يفزعون لتخليص الدين من الأوهام والخرافات ، فعندما نهض ابن تيمية يحارب البدع ويناضل الحشويين والفضوليين ، ويرد الإسلام إلى أصوله الصحيحة ونصوصه الصريحة ، وفطرته السمحة ، تصدى له أولئك الدراويش وأحلاسهم فرموه بالكفر ، واتهموه بالزندقة ، وكان أن سجن الرجل من جراء ذلك واحتمل من العذاب ألواناً ، كذلك كان الأمر عندما نهض « السيد جمال الدين الأفغانى » بمثل هذه الدعوة ، فقد اتهم بالكفر ، ونفى وشرد على حين كان هناك رجل هو « أبو الهدى الصيادى » يستغرق فى الشعوذة ويسيطر على « السلطان عبد الحميد » بشعوذات المتصوفة وتلفيقات الدراويش ، حتى كان صاحب الكلمة والصولة ، فلا ينال أحد مأرباً من الدولة إلا ببركته ، ولقد لقى الإمام الشيخ محمد عبده مثل ما لقى أستاذه جمال الدين ؛ وكذلك لقى كل مصلح دينى واجتماعى ..

والدعوة التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية لم يكن القصد الدينى فيها إلا تخليص الإسلام من الترهات والخرافات ، وما اصطنعه أولئك الشيوخ والدراويش من طقوس ومراسيم باسم الدين ، هى أشبه بالطقوس الوثنية ، ولم يكن للرجل

من غرض إلا الرجوع بالإسلام إلى طبيعته الأولى وبساطته السمحة التى خرج بها من الجزيرة العربية فى عهد النبي صلوات الله عليه ؛ وعهد الخلفاء الراشدين ، ولكنهم رأوا فى هذه الدعوة إلى تخليص الإسلام من مظاهر المروق مروقاً على الإسلام ، وخروجاً عن الدين ، واتخذ الإسلام المسكين فى تقدير أولئك الدراويش ذريعة للتفرقة بين صفوف المسلمين ، فأخذوا ينظرون إلى محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ، على أنهم فرقة خارجة مارقة فكانوا إذا أرادوا أن يعيروا شخصاً أو قصدوا إلى وصفه بنقض العقيدة ، قالوا له أنت « وهابى » ولكن إذا كانت روح العصر قد ساعدت على هذا فيما مضى ، بل حملت عليه حملا ، فان مما يروح عن النفوس أن نرى روح العصر قد تطورت بالمدارك والأفهام ، وأن نجد الرعيل الأكبر من الفقهاء ورجال الدين قد أصبحوا يزدرون تلك الأباطيل ، ويعملون جاهدين على تخليص الإسلام من تخليطات الدراويش وتخبطات منتحلى التصوف فى العصور الأخيرة ، وحين يتم هذا فسيصير الإسلام قوة تصل المسلمين بأرقى ما فى الحياة من النظم الاجتماعية ، وتمكن لهم فى الأرض كما مكنت لهم من قبل .

الناحية الاجتماعية :

أما تأثير أولئك الشيوخ والدراويش وأتباعهم فى الناحية الاجتماعية فقد كان أعظم شراً ؛ وأكبر خطراً ؛ ولعل الحياة الاجتماعية فى مصر ، بل فى العالم الإسلامى جميعه لم تناكب بمثل

ما نكبت به من جراء الركون إلى أولئك الشيوخ والإذعان لدعواتهم وخرافاتهم التى أفعموا بها نفوس العامة ، وأصبحت تسيطر على اتجاهاتهم ، وتكيف ميولهم فى الاحتفال بمطالب الحياة وتكاليف العيش ...

ذلك أنهم أفلحوا فى تصوير الدين بصورة الرهبانية، واستطاعوا أن يقنعوا الجماهير الشعبية بأن الإسلام هو التوجه إلى الآخرة على نحو ما هو شائع فى ديانات الهند والصين ، فكان من أثر هذا أن ركن الناس إلى الزهد فى الدنيا وملكها ومجدها ، وصاروا يتحرجون فى الاحتفال بمباهج الحياة التى أحلها الله لعباده .

وذلك أنهم حببوا للناس حياة الكسل والانصراف عن العمل ، والاعتقاد بأن ما هو كائن إنما هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل ، وشيوع هذا الاعتقاد وأخذ المسلمين به هو الذى جعل الباحثين الأجانب يتهمون الإسلام بأنه دين جبرى لا يأمر بالعمل مع أن الإسلام فى حقيقته دين العمل لا دين الكسل ولا دين الاتكال على القدر المجهول للبشر كما يقول الدراويش البطالون : رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل ، أو كما يزين للناس بعض مؤلفى الإفرنج من أنه دين جمود وتفويض وتسليم(١) ...

وذلك أنهم زينوا للناس حياة الفقر والرضا بالرثاثة والقذارة ، والصبر على كل مكروه ، والإذعان لكل ما ينالهم من الحكام

(١) لماذا تأخر المسلمون للأمير شكيب أرسلان ص ١٠١ .

المتجبرين والطغاة الظالمين ، ومن هذا كله خمدت الروح العاملة فى المجتمع المصرى ، ورضى الناس بما هم فيه من بؤس وشقاء ، وشر وضر ، وعندى أن هذا هو السبب فى عدم قيام ثورات اجتماعية تطالب بإصلاح الطبقات ، وتدعو إلى حياة راقية مهذبة تليق بالجماعات والأفراد ، وقد دل البحث على أن حالة الفلاح الفرنسى الذى قام بالثورة الفرنسية المشهورة كانت أسعد بكثير من حال الفلاح المصرى على مدى القرون المتطاولة ، وفى هذه الأيام أيضاً ، ولكن لماذا يثور الفلاح عندنا على فقره وبؤسه وشقائه وهو يعتقد أن هذا كله من عند الله ، ولا يد لأحد فيه ، كما قال له أولئك الدراويش من سكان التكايا والخانقاوات الذين استباحوا أن يتناولوا طعامهم من عطايا الناس دون أن يكون لهم كسب أو عمل ! !

وذلك أنهم حببوا للناس حياة التسول والرضا بالعيش من الصدقات والنذور التى كانت قوام المعيشة لأولئك الدراويش وبخاصة فى العصور الأخيرة ، وقد كان أن تأثر العامة بهم فى ذلك ، مع أن الإسلام دين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم لقومه « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » ، وعندى أن ما نراه اليوم من كثرة المتسولين فى المجتمع ، وشيوع هذا الخلق حتى بين القادرين على العمل والكسب إنما يرجع إلى ما أشاعه أولئك الشيوخ والدراويش بين الناس من هذا الخلق الذى كانوا يعيشون به ، ولا يرون فيه غضاضة بهم وزراية عليهم ، وهكذا نكبت الحياة الاجتماعية بأولئك الدراويش ، وكان لاعتقاد

العامة فيهم وتعويلهم عليهم أوخم الآثار والنتائج على كيان المجتمع مما أشاع فيه الجمود والانحلال .

بيئة صالحة للاستعمار :

بل إننا لا نعدو الحق ولا نبالغ فى التقدير إذا قلنا أن إسراف العامة فى الاعتقاد بالشيوخ وسكان القباب العالية قد جعل من المجتمع بيئة صالحة للاستعمار والإذعان لكل غاصب .. أولا ، لأنهم كانوا يعتقدون أن كل ما يصيبهم إنما هو بقضاء وقدر ، ثانياً : ولأنهم كانوا يزعمون أن بركات أولئك الشيوخ قادرة على حماية البلاد وصيانة العباد . ويحكى لنا الجبرتى فى ذلك حكاية طريفة من حوادث الحملة الفرنسية على مصر فيقول : « وحدث أن رجلا صيرفياً بجوار حارة الجوانية قال إن السيد أحمد البدوى بالشرق ، والسيد إبراهيم الدسوقى بالغرب ، يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى، وكان يعنى بذلك الجنود الفرنسيين وهم فى طريقهم إلى القاهرة؛ وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام ، فحاربه بعضهم وأسمعه قبيح القول، ووقع بينهما التشاجر وذهب النصرانى إلى سارى عسكر — يريد نابليون — وأخبره بالقصة : فأرسل من قبض على ذلك الصيرفى وسمر حانوته وختم على داره، وتشفع فيه المشايخ عدة مرار فأطلقوه بعد يومين ، وأرسلوه إلى بيت الشيخ البكرى ليؤدب هناك بالضرب ، أو يدفع خمسمائة ريال فرانسية فضرب مائة سوط وأطلق إلى سبيله »(١) .

(١) الجبرتى جـ٣ ص ٢٢ .

وشبيه بهذا ما يحكى عن السيد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ، إذ كان يخطب فى جموع المصريين ويحضهم على الثبات ، ويبشرهم بتدمير الإنجليز قبل أن يصلوا إلى أرض مصر ، فيزعم لهم أن المدافع المصرية ستطلق من الإسكندرية والمدافع التركية ستطلق من الدردنيل ، فتتلاقى قنابل هذه وتلك على رءوس الإنجليز فى مالطة ، فتدمرهم وتبيدهم ، ولن يستطيعوا الوصول إلى مصر ، فالصورة هى هى فى منطق الصيرفى ، وفى منطق عبد الله النديم ، وما أشبه الاعتقاد فى السيد البدوى والسيد الدسوقى اللذين يقتلان كل من يمر بهما من النصارى ، بالاعتقاد فى مدافع الأتراك او مدافع المصريين التى تتساقط قنابلها فتدمر الإنجليز وهم فى أقصى الأرض .

وليس من شك فى أن عامة الشعب وجماهيره المختلفة كانوا معذورين فى هذا الإذعان ، فان أرباب الدروشة والمشيخة قد غرسوا فى أنفسهم عقيدة راسخة بأن بركات الأولياء كافية لحفظ البلاد من كل بلاء ، وأن الأقطاب قد اقتسموا الأرض فيما بينهم ، وأخذ كل منهم لنفسه منطقة يرعاها ويتولى شئونها ، ويحفظها من شرور المفسدين وطغيان الفجرة الكافرين، أليست السيدة زينب « غفيرة مصر » ؟ .. أليس السيد البدوى هو الذى هزم الكفار وأتى بالأسرى من بلاد الإفرنج ؟ .. إذن فلماذا يشق أبناء الشعب على أنفسهم فى مجاهدة الغاصبين ومقاومة الفاتحين ما دام الأولياء والدراويش قد تكفلوا بحمل هذا العبء عنهم ، وهم ببركاتهم ونفحاتهم أقوى وأعظم

لقد نهض الغرب من يوم أن نهض الرهبان والقسس فيه يصلون الدين بمطالب الحياة الراقية المهذبة ، ويستفزون العواطف للأخذ بأسباب الحرية والقوة والنهوض .. وجمد الشرق وخمد وتخلرت أوصاله من يوم أن نكب بسكان الزوايا والتكايا وأصحاب القباب العالية ، أولئك الذين قبعوا فى مراقدهم وهم يمسكون بالمشاعر العامة ويأبون لها أن تتحرك إلا حركة الموت ، فبينما كان بطرس الناسك يقضى لياله ونهاره فى إعداد الخطب وتحبير الرسائل ، ويجوب الأقطار متنقلا من بلد إلى بلد لحث ملوك أوربا وأهلها على امتلاك أقطار المسلمين ، وإنقاذ إخوانهم مما يعانون فى القصد إلى بيت المقدس ، كان أبو حامد الغزالى غارقاً فى إخلوته ، منكباً على أوراده لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد(١) والحروب الصليبية مشتعلة فى قلب العالم الإسلامى ، ولا تسمع منه كلمة واحدة فى تنبيه المسلمين إلى الأخطار التى تحيق بهم من كل جانب ، وإلى تألب الأمم لافتراسهم ، وإن كان قد سطر مئات الصفحات فى تنبيههم إلى طريق الآخرة ..

ولقد فتح باب الشر على الشرق ، وأخذت الدول الأوربية المغيرة تتخطفه من كل جانب ، وتأخذه قطعة قطعة ، وتستذل أبناءه وتستعبدهم ، فما كان أولئك الشيوخ والدراويش يقولون لأتباعهم أومن يلوذون بهم : جاهدوا أو دافعوا هذا الشر عنكم وعن دينكم ، ولكنهم كانوا يقولون لهم : إن هذا من غضب الله

---

(١) الأخلاق عند الغزالى للدكتور زكى مبارك .

عليكم ، لخروجكم عن الدين ، وتهاونكم فى حقوق الأولياء ، وتمردكم على الاعتقاد فيهم .. والجماعات فى أطوار الانحلال تكون أشد استجابة لدعوات الإذعان والخنوع والاستسلام ، ولهذا كان المصريون أشد ما يكون استجابة لذلك التهافت فى تلك الفترة المظلمة .

وهناك حكاية يتندر بها أهل الرواية فى مجالسهم عن دخول نابليون إلى القاهرة ، فاهم يذكرون أنه بعد أن قهر المماليك فى « إمبابة » وعبر النيل ، سأل من حوله من العيون والأعوان : هل أمامنا إلى قلب القاهرة مقاومة نخشى بأسها ؟ .. فقالوا : لا شىء إلا الشيوخ يقرأون البخارى فى الأزهر على الكفرة المعتدين . وخطر لنابليون أن يكون البخارى مدفعاً ضخماً يهدد جيشه فسأل : وكم يبلغ هذا « البخارى » من البوصات وسرعة الطلقات .. ؟ ولكنهم طمأنوه بأن البخارى كتاب دينى ينتفع الشيوخ ببركته ، وليس مدفعاً يعمل بالبخار ..

وسواء أصحت هذه الحكاية أم لم تصح ، فانها تصور حقيقة واقعة ، وأن الجبرتى ليقدم لنا صورة واقعية لهذه الحقيقة فيما كان من أمر الشيخ السادات والشيخ البكرى وصلتهما بالفرنسيين فى السنوات الثلاث التى أقاموها بمصر ، وكيف كانا يركنان إلى جاه الحاكم الفرنسى ويحرصان جد الحرص على تنفيذ أوامره فى الإضرار بالأهالى والانتقام منهم حتى يظل لكل منهما مشيخته وجاهه وأمواله وأوقافه ، بل إن الجبرتى ليذكر فى لهجة مرة من التهكم والغيظ ما حدث من

الشيخ السادات فى تقربه من الفرنسيين ، وممالأته لهم ، حتى إذا ما غلبوا على أمرهم ودخل العثمانيون القاهرة ، كان أسرع من استقبلهم(١)

صورة لم تتغير ، ولم تتبدل ، فقد كنا إلى عهد قريب — فى أيام الحرب العالمية الثانية — نرى السيد البكرى .. الشيخ السابق لمشايخ الطرق الصوفية يقيم للضباط الأنجليز الموائد الفاخرة ، والحفلات الصاخبة التى يجرى فيها ما يحل وما يحرم ، ويبذل فى هذا المال الذى جمعه باسم الدين وباسم الطرق الصوفية ، وصار يجرى عليه بسطوة الرسوم الصوفية ، وكان الأولى أن يصرف هذا المال الذى جمع من دماء المسلمين فى مصالح المسلمين .

على أننا إذا ما تأملنا وقائع التاريخ المصرى الحديث ، وتبينا ما كان من مشاركة الطبقات الشعبية فى الثورات الوطنية والنهضات القومية ، فاننا نجد أولئك الشيوخ والدراويش كانوا يقفون دائماً فى الناحية السلبية .. ففى الثورة العرابية ، وفى الثورة المصرية ، وفى كل حركة سياسية أو معركة وطنية قامت بين الشعب وبين المصريين

(١) يكفى فى ذلك ما كان من خروج أبنة الشيخ البكرى وتبذلها مع الفرنسين حتى قتلت بسبب ذلك بعد خروجهم من مصر ، قال الجبرتى وهو يسرد الحوادث التى وقعت على أثر خروج الفرنسيين : وطلبت أبنة الشيخ البكرى وكانت ممن تبرج مع الفرنسين بمعينين من طرف الوزير ، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، وأحضروها ووالدها فسأله ها عما كانت تفعله ، فقالت إنى تبت من ذلك ، فقالوا لوالدها : ما تقول أنت فقال : إنى برىء منها فكسروا رقبتها .

لا نجد لهم أثراً يذكر ، وما كانوا يظهرون إلا فى موالدهم ومواكبهم بأعلامهم ودفوفهم وكاساتهم على ما هو معروف من أمرهم .

أقول هذا ، وأقصد بالحكم شيوخ الزوايا ودراويش التكايا ، وخلفاء الأضرحة والقباب ، وذلك الحشد الحاشد من مرتزقة المتصوفة وأتباع الطرق ، وهيهات شأن هؤلاء من الموقف الخالد الذى وقفه أبناء الأزهر فى الثورة المصرية ، أو من الموقف العظيم الذى وقفه السيد السنوسى الكبير ، ذلك السيد الذى شرع طريقه فى التصوف على أساس الفكرة الإسلامية الصحيحة ، فربى مريديه على أن يكونوا لدينهم ولوطنهم ، وإن موقفه فى وجه الاستعمار ومناضلة الإيطاليين لمن أروع مواقف الجهاد فى تاريخ الإسلام .

تجار الخرافات وبائعو التمائم :

بقيت ناحية من نواحى التأثير لأولئك الشيوخ فى المجتمع المصرى وهى ناحية لا تزال متسلطة على عقلية الشعب ونفسيته ، وأحسب أن تخلصه منها سيكون أمراً شاقاً وعسيراً ، وأعنى بذلك عملهم على إشاعة الخرافات الضارة بين الناس حتى إنهم اتخذوا من ذلك باب رزق واسع ، فأخذوا يتاجرون بالأحجبة والتمائم ، ويتخرقون على الناس بحكايات الجن والأرواح الطاهرة والشريرة ، ومعرفة الغيب وكشف المحجوب ، والتفاؤل أو التشاؤم بطالع الأيام ، والشعوب إذا ما منيت بالحرمان ، وسدت أمامها المسالك ، وأخذتها المظالم والأحداث من كل جانب ، وقفت عاجزة مستكينة ، تتلهف على

شىء من العزاء ، وتتلمس قوة خفية لإنقاذها مما هى فيه ، ومن ثم كان إقبال الشعب المصرى بسائر طوائفه وجموعه على أهل المشيخة والدروشة ، والتعلق بأصحاب العمائم الحمراء والخضراء والسمراء ، ولابسى الخرق والمرقعات ، والتصديق بكل ما يزعمون من أعمال الجن والعوالم الخفية ، والاعتقاد فى كل ما يتاجرون به من التمائم والأحجبة ، وقد ذاع ذلك إلى حد يدعو إلى العجب ، وهذا هو الذى جعل المستشرق الإنجليزى « لين » يقول : « ليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين .. وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعفاريت .. » وقد كان « لين » على حق فى هذا الحكم اعتماداً على ما شاهده من شيوع هذه الظاهرة فى المجتمع المصرى عندما جاء إلى مصر منذ قرن ونصف قرن ، ولكنه لم يكن على حق أبداً حين أرجع العلة فى ذلك إلى الدين الإسلامى ، وقال إن القرآن قد جاء بهذه الخرافات وأيدها ، فان الدين الإسلامى برىء منها ، والقرآن يحارب الخرافات ويندد بها ، ولعل الذى حمل « لين » على هذا الحكم هو ما وجده فى القرآن عن الجن ، وهو معذور فى هذا ، لأنه كان فى حاجة إلى طبيعة أخرى ليدرك الفرق بين الناحيتين .. ثم لأنه رأى جهلة أولئك المتصوفة يزجونه للناس على أنه من الدين والقرآن ، وهم يتقبلون هذا منهم على هذا الاعتبار ، مستسلمين مؤمنين بأنه من الدين والقرآن ، وما فعله النبى صلوات الله عليه وحث على فعله .

والواقع أن المستشرقين الذين تناولوا وصف المظاهر الدينية الإسلامية كانوا فى أحكامهم يخلطون بين الدين وبين ذلك الشعور الدينى الذى خلفه أولئك المتصوفة فى نفوس العامة ، مع أن هذا الشعور قد اتجه إلى ناحية مضادة ينكرها الإسلام ويندد بها على ما أشرنا إليه من قبل . ومع أن العلماء والفقهاء طالما أنكروا تلك المظاهر والطقوس التى ألصقت بالدين وحملت عليه ، وطالما قاوموا أولئك الدراويش فيما يزجون للناس من خرافات وأساطير ، ولو أن « لين » أراد أن يلتمس تعليلاً علمياً أدنى إلى الصواب لكان الأجدر أن يرد ما شاع فى الإسلام عامة من التلفيقات والخرافات عن الجن والملائكة والعوالم الخفية إلى ما صنعه كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما من شياطين اليهود الذين اندسوا فى الإسلام للدس على الإسلام .

أثر فى الموسيقى والغنـــاء :

وكان لأولئك المتصوفة والدراويش أثر فى الموسيقى والغناء ، حتى لقد كانوا عماد هذه الناحية الفنية حقبة طويلة من التاريخ ، وكانت الجماهير الشعبية لا تنعم بالسماع والطرب إلا فى مجالاتهم وحضراتهم ومواكبهم . ولقد كان صنيعهم فى هذا أدعى إلى إقبال الجماهير عليهم ، وجمع الناس من حولهم ، أولا : لأنهم وجدوا فى ذلك متنفساً لم يكونوا يجدونه فى ناحية أخرى ، ثانياً : ولأن للفن سلطاناً يأسر النفوس ويخلب الألباب ، ولأمر ما كانت عناية المسيحيين بتجميل الكنائس وتزيينها بالروائع الفنية ، ونحن فى هذه الأيام

نرى الناس لا يقبلون على قراءة القرآن بشغف إلا إذا كانت من قارىء رخيم الصوت حسن التوقيع .

فعلى الرغم من أن الفقهاء وعلماء الدين قد غضوا من قيمة الموسيقى ، واعتبروا الغناء من الملاهى التى لا تليق بأصحاب المروءة فان الصوفية ومشايخ الطرق فى إتجاههم الدينى قد اعتبروا الموسيقى ضمن شعائرهم ، واتخذوا الغناء أداة متممة للمظاهر الصوفية ، والاندماج فى العالم الروحى ، عالم السحر والصفاء ، لأنهم يعدون الموسيقى من العلوم الرياضية ،والتصوف عندهم رياضة ، ويقولون إن ما فيها من النغمات والمقامات يثير الشجن فى النفوس ويحرك العواطف بالخشوع ، ويبعث فى الإنسان الطرب الذى يجلو صدأ القلوب المكلومة ، وهذا كله ألصق بما ينشده الصوفية من المواجد والتجرد واستغراق المشاعر ..

وقد شرح الشيخ محمد بن اسماعيل الشهاب هذه الحقيقة فى كتابه المعروف « سفينة الملك » فقال : « إن الطفل ليصغى سمعه إلى ما تغنيه به أمه ، ويترك العويل والصياح ، وما ذلك إلا لأنه قد ذهب عنه ما يغمه بالطرب والارتياح مع كونه غير مميز .. والكامل إذا سمع، طرب ، ومتى طرب شرب ، وإذا شرب طلب ، ومتى طلب غاب وإذا غاب حضر ، ومتى حضر نظر ، وإذا نظر حصل ، ومتى حصل وصل .. » .

ورجال الطرق الصوفية على تفاوت فى جواز سماع الموسيقى

والغناء ، فبعضهم يكتفى فى ذلك بسماع التواشيح والأناشيد من أصحاب الأصوات الرخيمة ، العارفين بأصول الفن والتوقيع ، وبعضهم يجيز مع ذلك سماع آلات الصفير . أما رجال الطريقة المولوية فانهم يجيزون العزف بجميع الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها فى مجالس الإنشاد وحلقات الذكر ، وعلى العموم فقد كان لرجال الطرق الصوفية أثر بعيد المدى فى الموسيقى ، حتى لقد اصطبغت الموسيقى الشرقية فى تاريخها الماضى بصبغة صوفية ، وبخاصة فى تركيا وإيران ، ولا تزال هذه الصبغة تتراءى فى نغمات موسيقانا وألحاننا ، وإن الطبيعة الشرقية لترتاح إليها أبلغ ارتياح ، لأنها مستمدة من طبيعة الشعب،ولأنها تصور عواطفه المكدودة وترنحاته المستسلمة ...

ومجلس الذكر الذى يقيمه الصوفية ليس كما يبدو حركات فى الهواء لاضوابط لها ، بل إن الصوفية قد وضعوا لمجلس الذكر ضوابط دقيقة ، وقسموه على مقتضى مقامات الموسيقى المعروفة ، فهم أولا يبدأون مجلس الذكر بكلمة « لا إله إلا الله »،وهذا يسمى عندهم بالأرضية ، ثم يتدرج رئيس المجلس بالذاكرين إلى مقام الراست أو الرصد ، وهكذا ينتقل بهم إلى الدوكا،فالسيكاه ، فالجهاركاه ، ثم إلى الحجاز ، فالرهاوى ، فالكردى ، فالبياتى ، فالصبا .. **ويتابعه المنشدون بأنغامهم فى التنقل بين هذه المقامات ،**

فهم يبتدعون الإنشاد على الأرضية بشىء من المنظومات الصوفية .
وغالباً ما ينشدون فى ذلك قول القائل :

إلهى توسلنا بجـاه محمد   نبيك .. وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى   إليها قلوب الأصفياء تسارع

وبعد ذلك ينفرد رئيس المنشدين عند النغمة التى انتهوا إليها مجتمعين ، فيأخذ فى ترديد الاستغاثة من نفس النغمة .. ويستمر يردد عبارة « أغثنا أدركنا يا رسول الله » .. ثم يغطى بالموال من النغمة نفسها ، فاذا ما حمى الذاكرون أخذ فى إنشاد الأبيات على الأرضية مقطعة .. ثم ينفرد بالمقطعات والقصائد والأشعار الصوفة فى التوسل والحب والهيام .

هذه هى الطريقة المألوفة عند المنشدين فى مجالس الذكر ، غير أن رجال الطريقة الليثية ينفردون بانشاد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وردودها ، وعلى هذا جميع المنشدين فى مجالس الذكر بالقاهرة ، ولهذا تعرف هذه الطريقة عند المنشدين بالطريقة القاهرية ..

ولا شك أن تقسيم (طبقة) الذكر هذا التقسيم الموسيقى قد أكسب الذكر لوناً من الفن والانسجام ترتاح العواطف والأعصاب لمسايرته والاندماج فيه ، أقول هذا لأكشف عن حقيقة واقعة يخفى تعليلها على الناس . فكثيراً ما نرى أو نسمع أن مرضى قد اندمجوا فى حضرات الذكر أو أحضرهم أهلوهم إليها ثم حدث أن شفوا من مرضهم ، ويعزوا العامة هذا إلى بركات الشيخ الذى يقام الذكر

على طريقته ونفحاته ، وتحت تأثير هذا الاعتقاد يسارعون بتقديم النذور إليه والتمسح بأعتابه . أو بأهدابه ، والواقع أن العلة فى ذلك هى تأثير الانسجام الفنى على أعصاب المريض ، ومثل هذا تأثير « الزار » الذى يحسب العامة أن الأمر فيه للجن التى تركب الأجسام ، وما هو فى الحقيقة إلا تأثير ما يجرى فى تلك الحفلات من رقص وتوقيع منسجم على ما هو معروف ومألوف ..

ولقد كانت مجالس الذكر وحلقات الإنشاد الصوفية إلى عهد قريب عامرة حافلة بأعلام الفن ومشاهير المنشدين والمطربين ، وكانت ليالى الموالد فى القاهرة والعواصم مواسم للموسيقى والغناء ، يقصد إليها عشاق السماع من أقاصى البلاد ، إذ كان يغنى فيها عبده الحامولى ويوسف المنيلاوى ومحمد عثمان والشيخ المسلوب والشيخ سلامة حجازى والشيخ سيد درويش والشيخ على محمود وكلهم من أساطين الغناء . ولكن فى الأيام الأخيرة تطورت مظاهر الحياة وتبدلت أوضاعها . فانصرف المغنون والمنشدون عن مجالس الذكر وحلقاته إلى حفلات الإذاعة والصالات وتسجيل الأغانى للسينما ، ولهذا فقدت حلقات الذكر وليالى الموالد بهجتها وروعتها الفنية عند كثير من الناس . وأصبح لا يقبل عليها إلا عشاق الفن القديم ، والذين يطربون بنوع خاص لذلك اللون من الغناء الصوفى وما فيه من تجليات .

وبعد ، فهذه آثار ومظاهر خلفها أولئك المتصوفة والدراويش

فى كيان المجتمع وعقلية العامة واتجاهات الجماهير ، وكان لها أسوأ النتائج فى الحياة التى يحياها الشعب كما رأيت فيما قدمنا بين يديك ، وإن من المؤلم أن نرى هؤلاء الدراويش وأتباعهم ما زالوا يجرون على أساليبهم ويلوثون عقيدة الشعب وعقليته تحت سمع الدولة وبصرها بل فى رعايتها وسابغ عطفها ، وأشد وأنكى أن نرى كثيراً من المثقفين يقبلون عليهم ويتقبلون منهم ، وكأنهم لا يدرون أنهم بهذا يشاركون فى الجناية على المجتمع وتحطيم كيانه .

أما ما كان لهؤلاء من أثر فى انحطاط التصوف والتردى بالحياة الروحية فى مهاوى الانحلال والضلال .. وأما ما يجب من المبادرة لإصلاح هذه الحال الضارة بعقائد الأمة وعقليتها .. فذلك ما نعرضه عليك فى الفصل التالى ، وهو الفصل الذى نختم به هذا الكتاب .

الفصل الثامن

إصلاح واجب

فى هذا الفصل نتحدث عن حال الدراويش وأرباب الولاية ومدى ما لهم من تأثير فى التصوف ، وإنما أردت أن أتناول هذه الناحية بالحديث فى فصل خاص ، لأنها الناحية التى يتقلدون رسومها ، ويحملون اسمها ، وهى رأس بضاعتهم ومظهر تجارتهم ، وبها يفرضون لأنفسهم السلطان على الناس ويستحلون أموالهم ، وينالون ما نرى من تقديس وتعظيم .

حاضر المتصوفة :

فى مطلع هذا القرن العشرين عقد صاحب كتاب « حاضر المصريين أو سر تأخرهم »(١) فصلا خاصاً فى كتابه هذا وصف فيه « حاضر أهل الطرق والأذكار » قال فيه :

« جماعة المتصوفة وأهل الأذكار قوم خبثاء ، يتاجرون بالكذب والافتراء على الدين لكسب حطام الدنيا ، ولقد بلى بهم الإسلام ،

(١) ظهر هذا الكتاب القيم فى عام ١٩٠٢م وعلى غلافه أنه « تأليف محمد عمر من مستخدمى مصلحة البوستة المصرية » ولكن الكثيرين يؤكدون أنه من تأليف المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا وأنه وضعه مقابلة لكتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » الذى ترجمه سعادته أيضاً . ومما يذكر أنه هو الذى كتب مقدمة الكتاب

فهم يخدعون عامة المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى فرقوهم شيعاً وأحزاباً ، فمن كانت طريقته رفاعية لا يميل ولا يصبو إلى من عهده بيرمياً ، ومن كان عهده أحمدياً يخالف من كان برهامياً ، وكل له أقوال يؤيد بها طريقه ويوهن طريق الآخر ، ولو كانت أوهاماً لا نسبة لها بأصول الدين الصحيح والحق الواضح ، وذلك لتملك الجهل منهم ، وفشوه بينهم ، وكثرة جماعة البهاليل الذين يدعون معرفة الأسرار الإلهية ، وهم فى الحقيقة معترهون ساقطوا التكاليف الشرعية ، وإن حملة الرايات يمشون فى «سياراتهم»(١) وأمامهم « الزى منير » وخلفها جماعة أهل الأذكار والطرق وهم مشتغلون بالصياح والتصفيق ، ويعدون عملهم من مبانى الدين الإسلامى والله يعلم أنها أضاليل عامية ما أنزل الله بها من سلطان ، ولقد أصبحت الأذكار مفسدة للأخلاق ومجلبة للخزى والعار على أمة تأبى الضيم وتنفر من الأذى ، وإن الأجانب ليعدون موكب الرؤية والمحمل فى مصر من أكبر الاحتفالات الدينية عندنا ، ويكتبون عنه فى كتبهم وجرائدهم ما نخجل لو قرأناه ... » .

« ولأهل الطرق والأذكار أوهام كثيرة وخرافات عديدة ، منها ما ينسبونه إلى الأولياء من الكذب والنقص كقول بعضهم إن السيد أحمد البدوى استنكف أخذ العهد من الشيخ الرفاعى وصعد إلى السماء مؤملا أخذ العهد من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسبقه الرفاعى ومد يده إليه فتناولها البدوى وأخذ العهد منها ،

(١) المقصود مسيراتهم .

ثم قابله عند نزوله وسأله ممن أخذ العهد ، فقال له : من الرسول ، فقال له : أتعرف اليد التى قبضت عليها ؟ .. قال : نعم ، فمد إليه يده قائلا : أمثل هذه اليد ؟ فلما تأملها البدوى كظم غيظه .. » .

وهذا الذى قاله صاحب كتاب « حاضر المصريين » منذ ما يقرب من ثمانين عاماً هو ما يقال اليوم فى وصف حال أولئك القوم ، وهو ما كان يقال أيضاً قبل مئات السنين ، أى من يوم أن خرج هؤلاء الدراويش والشيوخ بالتصوف عن طريقته فى القرن السادس للهجرة ، وابتدأوا يجعلونه نظاماً له طقوسه ومراسيمه وأعلامه وشاراته على ما هو معهود فى نظام الرهبنة ، فكان أن انتقل التصوف من عالم التجرد والحقائق إلى عالم الكسب والارتزاق ، وصار حرفة يحترفها أصحابها للعيش ولطلب الدنيا ولكسب المثالة بين الناس ، وليس لها من رأسمال إلا تلفيق الخرافات والترهات وحمل الشارات والرايات ، ونقر الدفوف وضرب الكاسات .. إلى آخر ما نراه اليوم من حالهم ، وهى حال يمكن أن توصف بأى وصف إلا التصوف أو التعلق بأى سبب من أسبابه ..

تنديد الشعراء بتهريج المتصوفة :

وإذا كان الفقهاء ورجال الدين كثيراً ما شددوا النكير على هؤلاء المتصوفة ، فان الشعراء أيضاً كثيراً ما نددوا بحالهم وشنعوا على أساليبهم وألاعيبهم ، فمن ذلك قول أبى نصر السراج :

ليس التصوف حيلة وبطالة ... وجهالة ودعابة بمزاج
بل عفة وفتوة ومروءة ... وزهادة وطهارة بصلاح

وتيقن وتصـبر وتوكل   وتذلل وتكرم وسماح
فالى الصلاح غدوه ورواحه   وإلى الرشاد مساؤه بصباح

ولأبى بكر المقرى فى ذلك قصيدة طويلة ، وصف فيها حال أولئك المتصوفة وما يأتونه من المخازى والأعمال الطائشة فقال :

برغم سنة خير العجم والعرب   أضحت مساجدنا للهو واللعب
ما كان صلى عليه الله يأمرنا   بضرب دف ولا زمر ولا قصب
بل سد عن مزمر الراعى مسامعه   صوناً لها ، ولنا من هذه اللعب

ثم يقول :

فضحتمونا وصيرتم مساجدنا   وهى المصونة كالحانات للعب
شوشتم الدين ، غيرتم محاسنه   فعلتم فيه فعل النار فى الحطب
صيرتم دينه هزءاً ومضحكة   لكل ذى ملة من قوم كل نبى
هيهات والله ما فى دينه عوج   ولا بملته نقد لمحتسب
ولا دعانا إلى شىء نعاب به   ولا إلى فعلة تزرى بذى حسب

إلى أن يقول :

سألتكم بالذى لا تكفرون به   والطائفين ببيت الله ذى الحجب
هل استدار حوالى أحمد حلق فيما مضى من ذوى الإسلام والصحب

فتوى شرعية :

وفى عام ٦٦١ للهجرة ، أى منذ أكثر من سبعمائة سنة وجه استفتاء إلى علماء المذاهب الأربعة عما يصنعه الشيوخ والدراويش من الذكر ويقيمون من الحضرات فى المساجد قال فيه كاتبه :

« ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين وفقهاء المسلمين ، وفقهم الله لطاعته ، وأعانهم على مرضاته فى جماعة من المسلمين وردوا إلى بلد ، فقصدوا المسجد ، وشرعوا يصفقون ويشطحون ، فهل يجوز فعل ذلك شرعاً ؟ .. أفتونا مأجورين يرحمكم الله ... » .

وأجاب العلماء ، فقال الشافعية : السماع لهو مكروه يشبه الباطل من قال به ترد شهادته . وقال المالكية : يجب على الحاكم زجرهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا . وقال الحنابلة فاعل ذلك لا يصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولا يقبل حكمه إن كان حاكماً ، وإن عقد للنكاح فهو فاسد . وقال الحنفية : لا يصلى على الحصر التى يرقصون عليها حتى تغسل .. والله أعلم(١) .

ولقد تناول المغفور له السيد رشيد رضا هذه المسألة بالتفصيل ، وأبدى حكم الدين فى تلك الطقوس والمراسيم التى يفرضها المتصوفة والدراويش فقال : « لا يخفى أنه ليس لأحد بعد زمن الوحى أن يجعل بعض العبادات التى لا أصل لها فى الدين شعائر تؤدى بطريقة مخصوصة فى أزمنة مخصوصة بكيفية مخصوصة ، إذ لم يرد هذا التخصيص فى السنة المتبعة ، مثال ذلك صلاة الرغائب فى رجب وشعبان التى نص الفقهاء على كونها من البدع المذمومة ، وقس على ذلك ما هو دون الصلاة كالاجتماع لقراءة الأوراد والدلائل والأذكار

(١) وقفت على هذه الفتوى فى كتاب حاضر المصريين ، وفى مجلة الحياة التى كان يصدرها الأستاذ محمد فريد وجدى فى مطلع هذا القرن .

بالكيفيات المخصوصة فى الأيام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها وما فيها من البدع والمنكرات الكثيرة ، وإنما الحكم العدل فى التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أهل الصدر الأول فى إقامتهما والعمل بهما ، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول وما خالفه فهو القبيح المردود ..

ثم قال : « ... إن المنتسبين إلى طرق الصوفية فى هذا العصر ألوف الألوف ، ولكنهم هبطوا إلى أسفل سافلين ، فقلما يصلح أحد منهم أن يعد ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم ، دع صوفية الأرزاق وصوفية الحقائق .. وإن من هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طعماً ، ولم يعقل له حداً ولا رسماً، إنما قصارى أمره فيه أن يرأس زعنفة من الغوغاء، على اللغط والصياح بما يسمونه الأذكار والأوراد، ثم إنه يدعى له مقامات العارفين وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ما هو عندهم أهدى من الكتاب العزيز والأحاديث النبوية ، فإذا مثل الهوس فى أحلامه بعض ما يشغله فى عامة لياليه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس .. »(١) .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جزء ١ ص ١٢٤ ومابعدها .

طقوس ليست من الدين ولا من التصوف :

وإنما أوردت عليك هذا لتعلم أن ما يصنعه المتصوفة والدراويش وما يجرونه من الطقوس والمظاهر ليس من الدين فى شىء ، كما أنه ليس من التصوف ولا فى أى باب من أبواب القربى إلى الله ، وإنما هي أمور ابتدعت ، وطقوس استحدثت ، وبهارج مشى بها أولئك المتصوفة يقصدون الدنيا ويطلبون الرياسة على المريدين والأتباع بدعوى الولاية والروحانية ، وباسم الدين والتوجه إلى الله ، مع أن الإسلام دين لا يعرف ذلك النظام الكهنوتى ولم يكتب الرهبانية على أتباعه ، ولم يخص بأوامره ونواهيه طائفة دون طائفة . ولم يعرف الروحانية إلا أنها طهارة القلب وصفاء النفس وخلوصها من ضراوة الغرائز وشوائب الأنانية ، وأن يكون الإنسان فى وجهته إلى دينه كما هو فى وجهته إلى دنياه ، وأن يكون فى الاعتكاف لعبادة ربه كما هو فى السعى على رزقه ..

فليس من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية ذلك النظام الكهنوتى الذى يتمثل فى قيام الطرق الصوفية ، وما يصطنعه رجالها ودراويشها من حمل الرايات وضرب الكاسات ، وإقامة المراقص التى يسمونها بالأذكار والحضرات ، وما يشعوذون به من أكل النار والزجاج والثعابين والحيات ، والمطاعنة بالسيوف والدبابيس ، وإنما هى تمويهات وتهويلات وضروب من الخداع والتضليل .

وليس من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية تلك

الأوقاف والأقطاعات الضخمة، وتلك الأموال الكثيرة التى نجريها على سكان القباب العالية وخلفائهم من الدراويش، وما يبذل لهم من الرسوم المقررة فى الدولة وأن يكون الأمر كما قال حافظ إبراهيم شاعر النيل

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها ... بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بها الحاجات

وليس من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية أن تضاء أضرحة الشيوخ بالشموع وبالكهرباء على حين لا يجد أكثر الفلاحين شيئاً من النور فى دورهم التى هى أشبه بالقبور ، وأن تحرص الحكومة ويحرص الشعب على إقامة القباب المشيدة والأضرحة الفخمة وتغطيتها بالكسوة الفاخرة على حين هناك مئات من الأحياء لا يجدون المأوى الذى يظلهم ولا الثوب الذى يستر أجسامهم ..

وليس من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية هذا الذى يحصله شيوخ الطرق الصوفية، ويتقاضاه أتباعهم من الصدقات والنذور و« العوايد »، مما هو أشبه بالإتاوات: وبضرائب « الفردة » التى كانت تفرض على أبناء الشعب أيام حكم الأتراك .

وليس من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية ما تملكه مشايخ الطرق ودراويش المتصوفة من العمارات الفاخرة، والعقارات الواسعة، والثروات الكبيرة الضخمة، وكلها مما جمعوه وامتصوه من

دماء المساكين من أبناء الشعب الذين هم أحوج ما يكونون إلى قوت يومهم ..

ليس هذا كله فى شىء من الدين ولا من التصوف ولا من الروحانية ، ولكنها حال أليمة يجب علاجها والعمل على إصلاحها بما يتجه بنفوس أولئك القوم نحو التصوف الصحيح إن كانوا صادقين ، أو بردعهم عن غيهم إذا كانوا مخادعين مشعوذين .

محاولات الإصلاح :

والواقع أن حال المتصوفة وما يبدو فيها من المفارقات كثيراً ما استرعت أنظار المصلحين وأثارت العقلاء حتى من المتصوفة أنفسهم إلى المناداة باصلاحها ، فقد كتب المرحوم الشيخ محمد الغنيمى التفتازانى شيخ السادة الغنيمية الخلوتية مقالا فى مجلة مصر الحديثة المصورة (عدد مايو سنة ١٩٢٨) عن الطرق الصوفية فى مصر قال فيه : « ولم يعرف الإسلام التصوف فى صدره الأول خلافاً لزعم القائلين بذلك، واستنادهم إلى قصة أصحاب الصفة الواردة فى القرآن الكريم عن قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

ومع فرض صحة زعمهم بأن أصحاب الصفة كانوا منقطعين لعبادة

الله ، فان هذا الانقطاع ليس معناه التواكل والخمول ، فان الإسلام أمر بالجهاد فى سبيل الفتح ، وأمر بالسعى إلى الرزق » ..

وبعد أن تحدث الشيخ التفتازانى عن رجال الطرق الصوفية فى مصر ونظمهم قال : « ولو استطاعت الحكومة المصرية أن تساعدهم على إصلاح نظمهم ، وأن تعينهم بانشاء معهد لتخرج شيوخهم ومرشديهم لاستطاعت أن تسدى إلى غالبية الشعب المصرى المنتسبة — إلا فى القليل النادر — إلى الطرق الصوفية ، يداً خالدة فى سبيل الاحتفاظ بآداب الدين مع تنقية العقائد من غوائل الشرك ، وتطهير المسالك من عوامل الفساد، وإرشاد الجميع إلى سبيل الرشاد .. » .

وعرض المرحوم الشيخ رشيد رضا لهذه المسألة فى بعض كتاباته فقال : « طالما فكر محبو الأصلاح من عقلاء المسلمين فى إصلاح شأن المنتمين إلى طرق الصوفية ، وإنقاذهم من خيالاتهم الفاسدة ، وبدعهم الفاضحة ، بل إخراجهم من جحر الضب الذى دخلوه وهم لا يشعرون ، فلم يهتد أحد إلى ذلك سبيلا .. ولما هاجرت إلى مصر سنة ١٣١٥ هجرية كان أول إصلاح سعيت إليه أن حاولت إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكرى بالقيام بهذا الإصلاح ، ومازلت ألح عليه فى ذلك وهو يسوف مع الاستحسان حتى عمد إلى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتاباً فى الأخلاق والآداب ، على أنه سألنى عن رأيى فى ذلك فقلت له مراراً : إن الإصلاح لا يقوم إلا برجال من أهل العلم

الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعى أن ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الإصلاح الروحى يكاد يكون من محاولات العادات .. وأن مما يعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمى ، يورث كالمال ، فأمير البلاد يقلد بعض الوجهاء منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وهو منصب محصور منذ عهد بعيد فى بيت البكرى من بيوتات مصر(١) ، وشيخ المشايخ يقلد مشيخة أكثر الطرق المشهورة فى هذا القطر من يرثها عن أبيه وغيره .. وقد جرت المذاكرة فى ذلك مرة بينى وبين صديقى السيد عبد الرحمن الكواكبى ، وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الإصلاح من بابها محال ، فقلت له : أرأيت إذا أقنعنا بعض إخواننا الصادقين فى حب الإصلاح ، العاملين بطرق الإرشاد ، بأن يكونوا شيوخاً لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون أن يقفوا بعامة أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ .. فقال : إننا جربنا ذلك فى حلب ، فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم أن أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرياسة وآثرها ، فخسرناه بها(٢) . » .

(١) خرج هذا المنصب فى الأيام الأخير من بيت البكرى فى أواخر عهد فاروق إذا أقيل مراد البكرى بمرسوم ملكى لأسباب يندى لها جبين الدين والأخلاق .

(٢) تاريخ الأستاذ الأمام ج ١ ص ١٥٥ .

وعجيب أن يكون إصلاح شأن المتصوفة من « محالات العادات » كما يقول الشيخ رشيد، وأن يستعصى علاج الداء بهم إلى هذا الحد، وأن يقف المصلحون مكتوفى الأيدى بإزاء هذه الحال الآثمة التى تحرك شجن العقلاء من المسلمين ، وتثير الهزء والسخرية بنا فى نفوس الأجانب المقيمين والوافدين .

وأنت قد تسأل : كيف استطاع المصلحون المصريون أن يجاهدوا القوى الجبارة فى سياسة الاستعمار ، وأن يقاوموا كثيراً من العادات والتقاليد التى كانت جاثمة على صدر المجتمع ويفنى فيها الشعب ، وأن يحطموا كثيراً من العقبات والصعاب التى أقامتها أحداث الزمان ، ثم لا يكون هناك المصلح الذى يثبت فى تلك الناحية ويتصدى لإصلاحها حتى ينهج لها طريقاً قويماً، ويدحض ، كل ما فيها من الزور والبهتان ؟ ..

مسألة تحتاج إلى شجاعة :

وأنا أقول لك : إن المسألة لا تحتاج إلا إلى شىء من الجرأة والشجاعة ، ثم صدق الرغبة فى الإصلاح، وأن تستجيب الحكومة من جانبها لذلك ، حتى يتلاقى القول والعمل ، وتكون الخطة ثم تنفيذها ، لأن الذين تحدثوا فى هذا الإصلاح من قبل إنما كانوا يتحدثون فى خوف ووجل ، إذ كانوا يخشون ثائرة أولئك المتصوفة ومن يلوذون بهم من الدراويش والأتباع ، وهم يملأون فجاج

الأرض ، ولأن الحكومة كانت تتدخل لوقف كل كلام عن الإصلاح والعمل حتى لا تكون ثورة تشغل بالها ، أو شغب بين الطوائف يقلق خاطرها ، ولقد حدث فى عهد قريب أن ارتفع صوت المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى بوجوب إصلاح شأن أولئك المتصوفة ، فكان أن جاوبه شيخ مشايخ الطرق بالاحتجاج على هذا التدخل الذى ليس من حقه والاستنكار لهذا الاعتداء على الحرم المقدس .. وخافت الحكومة أن ينتصر لكل شيخ فريقه ، وأن يؤدى ذلك إلى الشغب بين الفريقين ، فأوعزت إلى الشيخين أن يكفا ، فأذعن الشيخان ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

طريق الإصلاح :

والواقع أن هذه المحاولات الارتجالية والدعوات الكلامية لا تمكن أن تؤدى إلى نتيجة إيجابية ، فان المشكلة أكبر من هذا وأخطر .

فالواجب أن ينهض بعبء الإصلاح لهذه الحال علماء الدين ورجال الحكم ، لأن الضرر بها يمس الشعب فى عقيدته الدينية وحياته الاجتماعية ، وعندى أن بقاء دولة الدراويش بطقوسها ورسومها سيظل حجر عثرة فى سبيل كل إصلاح وكل نهوض .

فعلى علماء الدين من جانبهم أن يفتوا الشعب فتوى صريحة جريئة فيما يأتيه أولئك المتصوفة والدراويش من أعمال التضليل والتمويه وما يبثونه من الأساطير والخرافات ، وما يسلكونه من السبل فى جمع الأموال والنذور والصدقات ، وما يغلونه من الأوقاف الكبيرة

باسم التصوف واسم الدين ، وأن يقولوا كلمة الإسلام صريحة فى ذلك حتى يعلم الناس أين هم من أمر دينهم ، ويدركوا مبلغ ما يأتيه أولئك المتصوفة من الدين والتدين .

وعلى الوعاظ أن يجعلوا تبصير الشعب وتنوير العامة فى هذه الناحية هدفاً من أهدافهم ، وأن يجاهدوا لاقتلاع تلك العقائد الضارة التى هى شر ما منى به الإسلام وشر ما يرين على القلوب والأبصار . لأن اقتلاع ما غرسه المتصوفة فى النفوس العامة من العقائد الضارة يحتاج إلى جهد جهيد .

وعلى الحكومة أن تزيل تلك الأوضاع الرسمية التى تقيمها لرجال الطرق والتى تجعل التصوف ، أو على الأصح دعوى التصوف ، حرفة رسمية ، وإن من الواجب دينياً واجتماعياً أن تبادر الحكومة فتحصر الأوقاف المحبوسة على سكان الأضرحة والقباب العالية وعلى خلفاء المشايخ ودراويشهم ، وأن تستولى على جميع ما يتحصل من صناديق النذور ، وتستغل ذلك كله فى بناء مستشفيات وملاجىء وإقامة مصانع ومنشئات خيرية لنفع الفقراء وترقية حياتهم الاجتماعية ، وأن تعتبر جمع النذور والعوائد باسم التصوف ضرباً من ضروب التسول وعملا يعاقب عليه القانون .

هذه إشارات وخطوط وضعناها كأساس للإصلاح ، ولمعالجة المشكلة التى بقيت جاثمة على صدر المجتمع المصرى من آثار العهود

الغابرة ، عهود التدهور والانحطاط ، أما وضع البرنامج التفصيلى لذلك فانه لا يقتضى كبير عناء ، وأنه لأمر ميسور للجميع متى تحققت الرغبة فى الإصلاح ، وصدقت النية فى العمل ، وكل ما أردناه هو أن ننبه ولاة الأمور إلى ما يجب عليهم من تخليص أنفسهم وتخليص الشعب من أوهام الماضى وتبذلاته ، وإلى إزالة تلك العوائق التى تعوق جمهرة الأمة عن الأخذ بأسباب الحياة الراقية المهذبة الكريمة ، وتباعد بينها وبين سماحة الإسلام وبساطته ، وإنه لعمل واجب الأداء فى ذاته ، وواجب الإسراع به والمبادرة إليه .. أما أن تظل الحكومة ترعى أولئك المتصوفة وهم على حالهم هذه التى لا ترضى عاقلا من العقلاء ، وأما أن تظل على وجهتها فى تملق عواطف العامة المتعلقة بسكان الأضرحة والقباب العالية مما لا يقره دين ولا شرع ، فلن يرجى لحال أولئك القوم صلاح فى أنفسهم ولا إصلاح بهم .

* * *

وأما بعد ، فهذا كتاب « السيد البدوى » أعود فأقول . إننى لم أقصد به إلى الترجمة للسيد والتعريف به وكشف حقيقته وشخصيته للناس فحسب ، وإنما أردت أن أكشف فيه عن الحقيقة فى رغبات الشعب وآماله التى تركزت حول هذا « القطب » خاصة وحول أقطاب « دولة الدراويش فى مصر » عامة ، ومدى ما كان

لذلك من تأثير فى حياة المجتمع المصرى من النواحى الدينية والاجتماعية والثقافية ، وإذا كنت قد اضطررت إلى إجمال القول فذلك لأن المقام لا يحتمل أكثر من هذا ، ولعلى أن أكون قد وفقت فيما أردت ووقعت على الصواب فيما قصدت ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

مصادر الكتـــاب

رجعت فى كتابة هذا الكتاب إلى عشرات من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، ويعلم الله مدى ما لقيت فى ذلك من الرهق والمشقة ، فقد كنت أعكف أياماً على المخطوط الضخم — وهو أشنع ما يكون رداءة خط وكثرة أخطاء — لأحقق رواية ، أو لأصحح إسما ، أو لعلى أجد فيه شيئاً يفيد ، ولكنى كنت بعد هذا كله لا أجد فيه أى شيء يفيد .

ولقد زاد فى هذه المشقة ما هو معروف عن كتبنا العربية ، وبخاصة كتب التصوف والطبقات والمناقب ، من عدم التقسيم ، والتبويب والفهارس الوافية ، ثم ما هو شائع فيها من تحريف الأسماء والتواريخ .

وفى أثناء الكتاب عنيت بالإشارة إلى مصادر البحث فى الهامش كما رأى القراء ، ولكنى رأيت أن أشير هنا إلى ما اعتمدت عليه من أمهات هذه المصادر على سبيل الإجمال :

فمن كتب التاريخ والتراجم :

١ — تاريخ الجبرتى .
٢ — تاريخ ابن إياس .
٣ — خطط المقريزى .
٤ — الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

٥ ـ علم الدين لعلى باشا مبارك .
٦ ـ السيادة العربية والشعة والإسرائيليات لفان فلوتن (الترجمة العربية) .
٧ ـ مقدمة ابن خلدون .
٨ ـ شذرات الذهب .
٩ ـ حسن المحاضرة للسيوطى .

ومن كتب الطبقات والمناقب :

١ ـ الطبقات الكبرى للشعرانى .
٢ ـ الطبقات الكبرى للمناوى .
٣ ـ الجواهر السنية فى المناقب الأحمدية للشيخ عبد الصمد .
٤ ـ قلائد الجواهر فى ترجمة الجيلانى .
٥ ـ نور الأبصار للشبلنجى .
٦ ـ مشارق الأنوار للعدوى .
٧ ـ إسعاف الراغبين للصبان .

ومن كتب الدراسات والبحوث :

١ ـ دائرة المعارف الإسلامية (مادة أحمد البدوى) .
٢ ـ بحث للمغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق كتبه فى ثلاثة

أعداد من السياسة الأسبوعية (سنة ١٩٢٧) بعنوان المولدان الأحمدى والدسوقى ، وبتوقيع (عالم) .
٣ ـ التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك .
٤ ـ فى التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى
٥ ـ تاريخ الإمام محمد عبده للشيخ رشيد رضا .

فهرس الكتـــاب

صفحة

هذا الكتاب فى طبعته الثانية ... ... ٣ — ٤

هذا الكتاب ... ... ٥ — ١٧

الفصل الأول

العلويون واستغلالهم للتصوف فى طلب الحكم ١٨ — ٣١

الفصل الثانى

حياة السيد وسيرته ... ٣٢ — ٥١

٢٨ حياة غامضة — ٣٤ أسرة السيد ونسبه — ٣٧ نشأة السيد — ٣٩ رحلة السيد إلى العراق — ٤٢ ساكن طنـــطا — ٤٥ فى دار ابن شحيط — ٤٦ بين السيد وابن دقيق العيد — ٤٩ صلة السيد بمكة — ٥٠ وفاة السيد ... ...

الفصل الثالث

تعليقات وتفسيرات ... ٥٢ — ٧٦

٥٣ أثر الرؤيا فى مقاصد السيد — ٥٦ صاحب اللثامين — ٥٨ البشت الصوف والعلم الأحمر — ٦١ قدم وحجر — ٦٥ لماذا لم يتزوج السيد ؟ —

صفحة

٦٧ السيد وفاطمة بنت برى — ٧٠ قصة خضرة الشريفة — ٧١ المعجزة الكبرى للسيد — ٧٤ كلمة أخيرة عن مقاصد السيد ... ...

الفصل الرابع

شخصية السيد ... ٧٧ — ٨٧

٧٧ الشخصية والنجاح — ٧٨ شخصية السيد — ٨٠ شخصية السيد العلمية — ٨٢ شخصية السيد الصوفية — ٨٤ شخصية مصنوعة ... ...

الفصل الخامس

أتباع السيد ومريدوه ... ٨٨ — ١٠٨

٩٠ السطوحية — ٩١ الشيخ عبد العـــال — ٩٤ الخلافة فى أسرة عبد العال — ٩٦ الشناوى والشناوية — ٩٧ خلفاء السيد ونظـــام الخلافة — ٩٨ سدانة الضريح — ١٠١ القوم الفقـــراء — ١٠٢ من هم السطوحية؟ — ١٠٦ تشعب الطريقة الأحمدية — ١٠٦ دفع شبهة ... ...

صفحة

الفصل السادس

موالد السيد ومواكبه ... ١٠٩ — ١٣٩

١١١ كيف أقيم المولد الكبير؟ — ١١٤ المولد الصغير ١١٥ المولد الرجبى — ١١٥ تواريخ إقامة هذه الموالد ١١٧ إنكار الفقهاء لما يقع فى المولد — ١١٨ دفاع الصوفية — ١٢٦ رأى على مبارك باشا — ١٣٠ المواكب الأحمدية — ١٣١ اليوم الأول للموالد ١٣٣ استقبال الشناوية ١٣٤ الليلة الختامية — ١٣٥ ركبة الخليفة — ١٣٦ ما يجرى فى المولد الصغير — ١٣٦ أثر العادات الفرعونية — ١٣٨ الأثر الفاطمى ... ...

الفصل السابع

نتائج وآثار ... ١٤٠ — ١٦٨

١٤٠ تأثير المتصوفة فى حياة المجتمع المصرى — ١٤٥ الناحية الدينية — ١٥٢ المناهضة للإصلاح — ١٥٣ الناحية الاجتماعية — ١٥٦ بيئة صالحة للاستعمار ١٦١ تجار الخرافات وبائعو التمائم — ١٦٣ أثر فى الموسيقى والغناء ... ...

صفحة

الفصل الثامن

إصلاح واجب ... ١٦٩ — ١٨٤

١٦٩ حاضر المتصوفة — ١٧١ تنديد الشعراء بتهريج المتصوفة — ١٧٢ فتوى شرعية — ١٧٥ طقوس ليست من الدين ولا من التصوف — ١٧٧ محاولات للإصلاح — ١٨٠ مسألة تحتاج إلى شجاعة — ١٨١ طريق الإصلاح — ١٨٣ خاتمة

مصادر الكتاب ... ... ١٨٥ — ١٨٧